مقالات ساخرة

زكريا تامر

بضاعتنا المحلية

هل نضحك هازئين مما يحلّ بنا أم نلطم وجوهنا خوفاً من أيام أخري آتية تحصد الزهر وتبقي الشوك؟

هل نستمر في بناء قصور لا يحق لنا الاقتراب من أسوار حدائقها؟

هل نتخلي عن عيوننا أم نتخلي عن آذاننا وألسنتنا؟

هل نتكلم ليل نهار أم نقفل أفواهنا مؤمنين أن الكلام الساخط وحده ليس سوي غبار صيف؟

هل نرشد أبناءنا إلي الطرق الموصلة إلي جنات الحياة الدنيا أم أن المتخبط في الجحيم اليومي ليس إلا أعمي يتصدي لقيادة مبصرين؟

هل ندرب سكاكيننا علي تقشير البصل أم ندربها علي تقطيع البطاطا استعداداً لخوض المعارك المصيرية؟

هل نتابع احتساء الماء زاعمين أنه ليس سوي تدريب علي احتساء دماء الأعداء؟

هل نغضب من الركوع للأوثان أم نطالب بزيادتها؟

هل نتعلم كيف نصبح أميين بغير معلم حتي يُستغني عن ميزانيات التعليم لتضاف إلي ميزانيات التسليح؟

هل نغني الميجانا والعتابا لإسقاط مروحيات الأباتشي أم نغني المواويل الطويلة التي تعجز الراردرات الحديثة عن اكتشافها؟

هل نقلد جدنا عباس بن فرناس أم نقلد جدنا يوسف العظمة؟

هل نتسلح حتي لا نقنط بكتاب في بيتنا رجل لمؤلفه إحسان عبد القدوس الآتي من بلاد قد تعادي من تصادق إذا مُنحت مائة مليار دولار حتي يشتري كل جندي قبراً فخماً وسيارة بورش وجزمة شارل جودان أم نتسلح بكتاب ذاكرة الجسد لمؤلفته أحلام مستغانمي الآتية من بلد المليون شهيد الطامح إلي أن يصير بلد المليون قاريء شهيد؟

هل نرحب بالليل وكوابيسه مدعين أنه أكثر رأفة من النهار؟

هل نسير حفاة حتي لا تبلي أحذيتنا التي لا نملك غيرها أم نسير علي رؤوسنا حتي يتاح لنا أن نري ما حولنا بغير تجميل؟

هل نشتري خياماً ونودع بيوتنا وأوطاننا بعد صدور الحكم عليها بالإعدام أم نغتال القضاة المزورين؟

هل نستطيع أن نخدع الموت إذا ظللنا متظاهرين بالموت؟

هل نؤيد من يقتلنا ببطء مبتسماً برقة أم نؤيد من يقتلنا بفظاظة بحجة أن الموت السريع أطيب؟

بعد خراب البصرة

أفاق أحد النقاد العرب من نومه، وتمطي وتثاءب وهو يشعر براحة من نام مائة سنة، وارتدي ثيابه علي عجل، وخرج من بيته، وسار في الشوارع قاصداً مقهاه ملتهفاً علي تدخين النرجيلة واحتساء عدة فناجين من القهوة، فبوغت في أثناء مشيه باكتشافه أنه لا يري الأحياء فقط بل يري أيضا الأموات غير المرئيين لغيره من الناس، وتأكد من أن ثمة أمراً غامضاً قد حدث له وهو نائم، وجعله مالكاً لتلك المقدرة الغريبة التي تمكنه من رؤية الكثير من الأدباء العرب الأموات المتسكعين في الشوارع، وحدق إلي ما حوله بفضول:

كان الكاتب المصري مصطفي لطفي المنفلوطي يهرع في الشوارع باحثاً بإلحاح عن الشاعر السوري أدونيس وهو يصـــــيح بحنق: إذا أراد أن يتابع السطو علي إنجازاتي البلاغية، فليكن جريئاً، ويكف عن الاختباء وراء أقنعة الحداثة .

وكان الشاعر والمسرحي المصري نجيب سرور يحوص متنقلاً بحيرة من رصيف إلي رصيف محاولاً الاهتداء إلي مبني السفارة الصومالية كي يقدم إليها طلباً للحصول علي الجنسية الصومالية والتخلي عن الجنسية العربية.

وكان الشاعر اللبناني خليل حاوي جالساً علي أحد الأرصفة يحملق بسخرية إلي مظاهرة غاضبة تتعالي فيها الهتافات المنددة بأمريكا وإسرائيل، ويتمتم بصوت متهدج آسف: لو كان الكلام ينفع لما انتحرت!

وكان القاص المصري يوسف ادريس يدخل المكتبات ليغادرها محملاً بكتب لكتّاب آخرين، ويمزقها بحركات نزقة وهو يقول: عندما كنتُ حياً كانوا كلهم أقزاماً، وعندما رحلت عن الحياة صاروا كلهم عمالقة .

وكان الشاعر العراقي بدر شاكر السياب ملتصق الظهر بحائط، يقرأ ديواناً من الشعر الحديث، وقد رمي بالديوان فجأة إلي الأرض، وقال بصوت يقطر ندماً: لو كنت أعرف أن تطويري للشعر العربي سيؤدي إلي مثل هذا الشعر الهراء لقضيت حياتي كلها أنظم الشعر مقلداً أحمد شوقي وابن سكرة .

ولما ملّ الناقد من التفرج علي الأدباء الأموات، سارع إلي مقهاه، ودخله، وطلب نرجيلة وفنجان قهوة، فأهمل الجرسون طلبه، وعامله كأنه غير موجود وغير مرئي، فذهل الناقد، وأيقن أنه قد مات في أثناء نومه، وأخرج من جيبه قلمه وأوراقه البيض، وابتدأ يكتب آراءه الحقيقية في أدباء سبق له أن امتدحهم وقارنهم بكبار الأدباء في العالم، وكانت آراؤه الجديدة تنصحهم بالعمل في أية مهنة ما عدا مهنة الأدب، وقد توقف عن متابعة الكتابة قانطاً عندما تنبه إلي أن ما سيكتبه لن يصل إلي القراء.

القهوة أفيون الشعوب

غفر الله لكل جريدة عربية نشرت بسذاجة ذلك الخبر الطريف الغريب عن اكتشاف علماء روس أن القهوة تُصيب بالجبن والخوف وتُفقد الشجاعة والجرأة، ولم تعلم تلك الجرائد أنها جعلت الفرح يختال مزغرداً راقصاً في قصور المسؤولين العرب الذين يخشون شعوبهم ويسعون لجعلها مزيجاً من الخراف والأرانب

والببغاوات، وكلما خيل إليهم أن مساعيهم تكللت بالنجاح بوغتوا بما لم يكن بالحسبان، واتضح لهم أنهم كانوا من الواهمين، وها هم اليوم تسنح لهم فرصة العمر، فما كانوا يبحثون عنه قد جاءهم مجاناً وبغير تعب، ولا بد من أنهم سيحاولون الاستفادة من هذا الاكتشاف لتعميم الخوف بأمتع الوسائل وأسهلها وأرخصها، وستنطلق أولاً أجهزتهم العلمية والأمنية لمحاربة الشاي باتهامه بأنه مسبب السرطان والإيدز حتي يتاح للقهوة وحدها أن تصول وتجول في كل الساحات متوجة بأكاليل الغار، وستشهد الأسواق طوفاناً من القهوة التي ستباع بأسعار رمزية بسبب ما نالته من دعم حكومي سخي، وسيراقب المختصون كل بيت من البيوت، وكل بيت لا يحتسي سكانه القهوة بشراهة، سيُشتبه به، ويُعامل علي أنه مركز خفي لتدريب المشاغبين والمتمردين والخارجين علي القانون، وستتغير المناهج المدرسية، وسيضاف إلي كل كتاب مدرسي فصل جديد عن الفوائد الجمة للقهوة، وسيقال في الكتب المدرسية الأدبية أن المتنبي لم يوفق في نظم قصائده الخالدة إلا لكونه من مدمني القهوة، واغتيل بينما كان يهرّب نوعاً فاخراً من البن الكولومبي، وسيُقال في الكتب المدرسية العلمية إن القهوة هي التي أتاحت للعباقرة الاهتداء إلي مكتشفاتهم التي أغنت الحضارة الإنسانية، وفي أقبية التحقيق، لن يبدأ التحقيق وملحقاته مع أي متهم إلا بعد إرغامه طوال أيام علي احتساء القهوة، وستتغير شروط الانتساب إلي اتحادات الكتاب الرسمية، ولن يقبل أي عضو جديد إلا إذا كان مزوداً بوثائق تثبت عدد فناجين القهوة التي يشربها في كل ساعة، وسيُرغم نزلاء السجون من عتاة المجرمين علي شرب القهوة حتي تتغير طبائعهم إلي حد أنهم يستجدون أن يعملوا في المستشفيات وملاجيء العجزة ممرضات وقابلات. أما المسؤولون العرب الآخرون التواقون إلي أن تتحرر شعوبهم من كل ما يحول دون تطورها، فسيكافحون القهوة بوصفها من أخطر المخدرات، ولن يفلت مهربوها وشاربوها من حبال المشانق.

مكـــــــيّفةٌ مبرّدةٌ مثلّجةٌ

كتب أحد شيوخ فلسطين كلمات غاضبة أشبه بولاويل محرضاً مسلمي العالم علي التبرع للفلسطينيين بثلاجات لحفظ جثث شهدائهم لأن ما هو موجود لديهم من ثلاجات لم يعد كافياً.

وأي متابع للأخبار سيكتشف أن المسلمين لم يتبرعوا بأية ثلاجات كأنهم مؤمنون أن الشهيد يُكرم بدفنه أو كأنهم استصغروا ما طلبه الشيخ منهم، واعتبروه مهينا لهم وهم المستعدون للتبرع بأرواحهم لا بأموالهم خاصة وإن التبرع بالمال في هذه الأيام الشمطاء يفسر بأنه دعم للارهاب الذي تحاربه الدول القابضة علي عنق العالم وخصيتيه أو لعل المسلمين لم يتبرعوا بالثلاجات لاستحالة توصيلها أو لعلهم لم يصدقوا ما قاله الشيخ لكونهم مقتنعين بأن الوطن العربي يزخر بثلاجات تزيد عن حاجته، وبعضها ذائع الصيت، وأشهر ثلاجاته هي تلك الثلاجة الضخمة غير المرئية التي ابتكرها مخترع مجهول لتتسع للجيوش العربية جمعاء، ووضعها في داخلها، وأغلق بابها عليها مطمئنا إلي أنها قد تجمدت وباتت عاجزة عن الاتيان بأية حركة، ومن الواضح أن اطمئنانه ليس وهما، فهي جيوش لا تدبر أي انقلاب كأن المواطنين لا عمل لهم سوي تدبيج المكاتيب الغرامية وإرسالها إلي حكامهم متشبثين بهم بحجة أن الشبعان خير من الجوعان أو كأن

جنرالات تلك الجيوش زهاد نساك لا مطامع لهم أو كأن حصتهم من أرباح الوطن تصل إليهم وهم في مخادع النوم.
وهي جيوش لا تشن حربا علي العدو الصهيوني بحجة أنه يملك أسلحة متطورة لا تملك مثلها، ولن يتاح لها أن تملكها بسبب أوضاع دولية معقدة.
وهي جيوش تتجاهل أن الجندي ملزم بالموت تنفيذا لعقد العمل المبرم بينه وبين الوطن، وتحبذ أن يموت الناس دفاعا عن وطنهم بينما جنودها لن يشاركوا في أية حرب إلا إذا كانوا في ختامها أحياء ومنتصرين، وهذه الحرب قريبة بعد أقل من مليون سنة.
كل شركات العالم تطرد أي موظف غير منتج ما عدا الشركة العربية الرسمية، فهي تحتاج إلي جيوش عاملة، وليس لديها غير جيوش للزينة فقدت كل ما يسوغ لها البقاء في قيد الحياة، ولكنها مستمرة في الحياة حريصة علي ألا تفقد حقها في نيل الجزية المفروضة علي الوطن، والويل للمتأخرين والمسوفين والمماطلين!

تلخيص ما لا يلخص

طُرد السجين العجوز من سجنه بعد أن عاش فيه سنوات لا يذكر عددها بالضبط، فبادر إلي مغادرته من دون أن يتوقع أن ينتظره خارجه أحد، فزوجته طلقته وتزوجت غيره، وأولاده يجهلون أباهم، وأمه ماتت، وإخوته تبرؤوا منه، ومشي في الشوارع فرحاً وحزيناً في آن واحد، وبوغت بأن كل شيء قد تبدل، وبات مختلفاً عما كان يعرفه..
رأي السجين أشجاراً تركض مرعوبة أسرع من ركض النعامة، فلم يستغرب، وحكم عليها بأنها إما واهنة العلاقة بترابها وجذورها،وإما أن الفؤوس تطاردها، وإما أنها مطلوبة حية أو ميتة من قبل جهات لا ترحم.
ورأي السجين كلاباً تأكل لحم نمور حية، والنمور صابرة لا تقاوم، مذعنة لما يحلّ بها، فلم يتعجب، فالفأر والنمر لا يختلفان في السلوك، وليس لهما إلا الخضوع إذا كانا سجينين مقيدين، والنمر نمر في غابته فقط، وحين يُرغم علي تركها، يُرغم أيضاً علي التبدل، و من الطبيعي آنذاك أن يسود الاعتقاد أن الكلب أفضل من النمر.
ورأي السجين أنهاراً تسير إلي الوراء محاولة الرجوع إلي ينابيعها، فتأكد من أنها تحاول تقليد الناس الذين يحاولون بإصرار العودة إلي بطون أمهاتهم فراراً من عالم فظ، فتخفق محاولاتهم، ولكنهم لا يقنطون.
ورأي السجين رجالاً ونساءً وأطفالاً يضحكون ضحكاً حقيقياً نابعاً من قلوبهم، فلم يصدق ما رأي، واقتنع أنه نائم، وما رآه ليس إلا هذيان نائمين يحلمون.
ورأي السجين شعوباً تتثاءب غير مبالية ببراكين تثور حولها وتحدق بها، ولم ينجح في تحديد نوع تثاؤبها، فالمستيقظ من النوم يتثاءب، والمتأهب للنوم يتثاءب، والكسلان اللامبالي البليد الخامل يتثاءب.
ورأي السجين سلاحف تطير كأنها نسور أو صقور، فلم يدهش أية دهشة، فالزمان الحالي زمان الطيران والطيارين، وفيه طارت طائرات، وطارت مدن وقري، وطارت أوطان وأمم.

ورأي السجين رجالاً ذوي شوارب كثة يرتعدون رعباً من قطط هزيلة معتقدين أنها تتعاون سراً مع جهات أمنية، وتخبرها بكل ما تراه وتسمعه.
ورأي السجين سيارات تعبر الشوارع مسرعة كأنها في سباق، فاعترض فجأة طريق إحداها حتي يختتم حياته بتجريب ما لم يجربه من قبل.

ألف سنة!

في ليلة من الليالي، رأي أحد الحكام القدماء في أثناء نومه أنه يمشي في بستان كثير الشجر، وبوغت بشجرة ضخمة تهوي عليه وتقتله، فاستيقظ من نومه مرعوباً، واستدعي ثلاثة من كبار منجميه، وروي لهم حلمه، وطالبهم بتفسيره التفسير الصحيح.
قال المنجم الأول: ستتكاثر غاباتك، وتزداد أرباح بلادك من بيع الخشـــــــــــــب للدول الأجنبية .
وقال المنجم الثاني: لا بدّ من أنّ أحد أعدائك استخدم سحراً ضدك، ودفنه تحت شجرة، ولا بدّ من البحث عنه والعثور عليه وإتلافه .
وقال المنجم الثالث: هذا حلم ليس صعب التفسير، فهو رسالة تحذير وتنبيه يقول فيها ما يريده بوضوح تام وبلا أيّ غموض .
فقال الحاكم للمنجم الثالث متسائلاً بصوت غاضب: وما الذي يقوله؟ .
قال المنجم: يقول إنّ وفاة سيدنا الحاكم سيكون سببها شجرة من الأشجار .
فصمت الحاكم مفكراً وقد بدا عليه كأنه صدّق تفسير المنجم الثالث، وعندما تكلم أمر بقطع كلّ الأشجار في بلاده، فنُفذ أمره فوراً، وقُطعت الأشجار كافة، ولم يعد في كل البلاد التي يحكمها أية شجرة، وفقدت الطيور أعشاشها، واضطرت إلي الهجرة والبحث عن وطن آخر.
وفي ليلة أخري، رأي الحاكم في أثناء نومه أنه في بستان بغير شجر، ويمشي علي ضفة نهر، فزلت قدمه، وسقط في النهر، وتجمع الناس علي ضفتي النهر يتفرجون علي الحاكم وهو يغرق، ولم يحاول أيّ واحد منهم إنقاذه، فأفاق الحاكم من نومه متعكر المزاج غاضباً، وطلب المنجم الذي يثق به وبصدق تفسيراته، وحكي له عن حلمه، فشحب وجه المنجم، وقال للحاكم بصوت مذعور آسف: سيتعرض سيدنا الحاكم في يوم آتٍ للغرق في نهر .
فقال الحاكم بصوت واثق: ولكني لن أغرق في أيّ نهر إذا صارت بلادي بغير أنهار .
وأمر الحاكم بإلغاء كلّ الأنهار في بلاده وبناء المزيد من السجون لمعاقبة مواطنيه العاقين، وجلس علي كرسي الحكم مطمئناً غير مبال ببلاده التي صارت بعد سنوات أشبه بصحراء جرداء، وعاش ألف سنة.

ليست بلادنا

ثمة بلاد كل شيء فيها متهم بالتقصير..

الغربان مقصرة لأنها تنعب صائحة: قاق قاق ، ولا تنعب صارخة: عاش عاش ، تقديراً لفئة مفترسة من الناس تؤمن بأنها يحق لها وحدها أن تعيش، ولا يحق لغيرها إلا الهلاك.

المحطات التلفزيونية والإذاعية مقصرة، فهي تبذل جهدها لإقناع المواطنين بالتخلي عن عقولهم وآذانهم وعيونهم، ولكن المواطنين ظلوا مالكي بقايا عقول تفكر وبقايا آذان تنصت وتسمع وبقايا عيون تري وتحملق.

العصافير مقصرة، ولم تتعلم الزحف، وأثار طيرانها حسد المخترعين لها، وكانت السبب في اختراع الطائرات الحربية.

الجوع مقصر، ولم ينجح في دفع ضحاياه إلي أن تصير وحوشاً يفترس أحدها الآخر.

الخراف مقصرة، فالمواطن يأكل لحمها بينما ينبغي لها أن تأكل المواطن ما دام البقاء للأقوي.

المعلمون مقصرون إذ يكتفون بتحويل المدارس إلي مخافر شرطة، ولا يحولونها إلي أماكن لها صفات السجون والملاهي.

الأدباء مقصرون، فهم يصورون الفيل ذيل فأر بينما الأديب المبدع يصور ذيل الفأر نمراً شرساً سفاكاً للدماء.

رغيف الخبز مقصر، فهو يذلّ ويروض فقط، ولا يزهق الأرواح.

المهندسون مقصرون، فهم يشيدون أبنية تتداعي وتنهار بعد سنة، ولا تنهار بعد أسبوع.

أزهار الحقول والحدائق مقصرة، وينبغي لها الاختفاء لتحل محلها الأزهار الصناعية، وعندئذ تتضاءل البطالة، ويجد رأس مال ما الفرصة المناسبة كي ينمو ويشب ويترعرع.

رجال المعارضة مقصرون لأن وجودهم يتطلب بناء السجون، وبناء السجون يحول دون بناء القصور، وبناء القصور هو الأهم لأسباب وطنية وقومية.

الصحافة مقصرة، ولو كانت تؤدي واجبها الإعلامي المسؤول لكان المواطن يأبي مسها، وينظر إليها نظرة الشجرة الخضراء إلي الجراد.

الآباء مقصرون، فهم يربون أطفالهم تربية تمنحهم القدرة علي أن يصيروا في المستقبل خدماً مطيعين لقاء أجر بينما التربية المثالية المنشودة تقضي بأن يكونوا خدماً بلا أجر.

لون السماء الأزرق مقصر، ولن ينجو من تهمة التقصير إلا إذا ارتدي الثياب السود تعاطفاً مع شعوب لا نصير لها.

المواطنون مقصرون لأنهم مصممون علي الاستمرار في الحياة، ولا شيء في حياتهم إلا الهباء.

لماذا بكي الرازي؟

لعل أبا بكر الرازي عندما علم وهو في قبره أن اسمه قد أطلق علي مستشفي جديد في جنين الفلسطينية تباهي بين زملائه الأموات بهذا التقدير له من مستشفي أنشئ ليعالج بشراً يواجهون أشرس احتلال وأشنع تجويع وأبشع اذلال وأقسي هوان، ولكن تباهيه تلاشي بعد ما حدث في مخيم جنين، وتمني أن يكون مغموراً حتي لا يصبح شاهداً علي آلام لا يحتمل رؤيتها لاحيّ ولا ميت:

في أثناء القصف الإسرائيلي علي مخيم جنين، اتصلت امرأة تلفونياً بمستشفي جنين، وأخبرت أحد أطبائه أنها تعاني آلام المخاض من دون أن يكون عندها أحد يساعدها، فقال لها الطبيب أن كل سيارات الإسعاف يمنعها الجيش الإسرائيلي من التحرك، ونصحها بأن تواجه الأمر الواقع بشجاعة، وأن تحاول الولادة وحدها، فبوغت الطبيب بأن المرأة قد عملت فوراً بنصحه، وبدأت تصرخ صراخ الموشكة علي الولادة، وأخبرته بعد لحظات بصوت واهن أنها أنجبت مولوداً، ولكنه لا يبكي ولا يصرخ ولا يتحرك، فقال لها الطبيب: احتسبيه شهيداً كغيره من شهدائنا ، ولم يقل إنها أنجبت أكثر الأطفال الفلسطينيين المولودين ذكاءً ووعياً، فهو قد عرف وهو في بطن أمه ما ينتظره بعد الولادة، فإذا لم يُقتل رضيعاً قُتل طفلاً أو فتي أو شاباً بعد تعذيب وإذلال لا يطيقهما حتي الحيوان، فآثر الانتحار وخرج من بطن أمه ميتاً.

وتمكنت سيارات الإسعاف من دخول مخيم جنين، ونجحت في نقل بعض الجرحي المصابين إصابات خطيرة إلي مستشفي جنين، فحاول الأطباء نقلهم إلي داخل مبني المستشفي لتقديم ما يحتاجون إليه من علاج عاجل، ولكن الجنود الإسرائيليين منعوهم، وظل الجرحي مرميين علي الأرض ينزفون دماً ويئنون ويصرخون متألمين مستغيثين حتي ماتوا. وعندئذ أمر الجنود الإسرائيليون الأطباء بنقل الجرحي إلي داخل المستشفي.

ومن الواضح أن الجرحي قد أخطأوا خطأ فادحاً، فلو قاوموا آلامهم التي لا تقاوم، وخنقوا أنينهم كاظمين صراخ أوجاعهم واستغاثاتهم، ولاذوا بالصمت دقائق لكان الجنود الإسرائيليون الضجرون أمروا الأطباء بنقل الجرحي فوراً إلي المستشفي بعد أن حرموا سماع ما كان يطربهم ويبعث فيهم النشوة والدفء.

ومسح أبو بكر الرازي وجهه بتراب قبره، واقترح علي زملائه القيام بعمليات انتحارية، تحيّر الإسرائيليين، ولا يتوصلون إلي معرفة فاعلها الذي يظل مجهولاً، فتعالت الأصوات مرحبة مؤيدة.

العشاء الدمشقي

اشتهر أهل دمشق بالوداعة واللطافة والرقة والدماثة، وتفوقت النساء علي الرجال في امتلاك هذه الصفات بعد تنقيحها وصقلها.

واشتهر أهل دمشق بترحيبهم بالغريب إذا لم يكن غازياً، ومعاملته كأنه صديق قديم يعرفونه قبل عشرات السنين، وقد التقيت مصادفة في القطار من أوكسفورد إلي لندن عجوزاً بريطانية محبة للأسفار، فحكت لي عن زيارتها لدمشق، وكيف أنها استأجرت سيارة تاكسي لتطوف بها في شوارع دمشق والمناطق المحيطة

بها، وكان الصيف شديد الحرارة، وقد لاحظ السائق أن السائحة العجوز متضايقة من الحر، ولم تعد تحتمل المزيد منه، فدعاها إلي بيته القريب حيث بادرت زوجته إلي قطف الليمون من شجرة منتصبة في حديقة البيت، وعصرته وأضافت إليه السكر وقطعاً من الثلج، وأقسمت العجوز أنها طوال حياتها لم تتذوق ألذّ من الشراب الذي قدم لها، واستغربت أن الجميع كانوا يعاملونها بود شديد علي الرغم من عدم وجود لغة مشتركة فيما بينهم، وطلبت منها زوجة السائق بإلحاح البقاء للغداء ريثما ينتهي طهوها للطعام الذي تعده، وقالت لي العجوز مدهوشة متعجبة إنها عندما تزور أقرب أقربائها يكتفون بأن يقدموا لها فنجان شاي، وحسدت أهل دمشق علي هذه المقدرة العفوية الخارقة علي حب الآخرين من غير تصنع أو تكلف.

وعندما تحدثت الأخبار عن طرد القنصل الأمريكي من مطعم دمشقي اعتاد التردد إليه، فهي تعني أن اللطافة الدمشقية العريقة قد واجهت ما أرغمها علي أن تتحوّل فظاظة، ومن المدهش أن من طرد القنصل الأمريكي لم يكن صاحب المطعم بل زوجته الفنانة التشكيلية التي قالت إن المطعم يرحب بالأمريكيين العاديين، ولكنها لم تحتمل أن تري في المطعم أمريكياً ممثلاً للحكومة التي تدعم إسرائيل بالسلاح والمال، وتعادي الفلسطينيين.

ومن المؤكد أن سلوك تلك المرأة السورية ليس مجرد سلوك شخصي خاضع للأهواء والنزوات، بل هو سلوك معبر عن موقف شعب ويلخصه ببلاغة.

ولا بد من أن القنصل الأمريكي المطرود قد تنبه أول مرة إلي أن الدولار ليس مرحباً به في كل الأزمنة والأمكنة، وينبغي له ألا يدهش لطرده، فالشعب الذي طرد الجيش الفرنسي المحتل ليس عسيراً علي نسائه أن يطردن أمريكياً ساذجاً أراد العشاء في مطعم دمشقي من دون أن يطلب من قوات بلده مساندته عسكرياً في البر والبحر والجو.

تصغير المصائب!

كثيرون من المثقفين العرب يطالبون الدولة بأن تقلل من تدخلها في شؤون الناس الاقتصادية والتربوية والإعلامية والثقافية، ولكن قارئاً من قراء إحدي الجرائد العربية كان له رأي مختلف شديد الوثوق بالدولة، فاقترح عليها تأليف وزارة جديدة للزواج، وحدد لها أهدافها، وهي مساعدة الشاب علي الالتقاء بالفتاة، واتمام عملية الزواج، والتوفيق ما بين الزوج والزوجة ومساعدتهما علي حل مشكلاتهما، وإنشاء إدارة لتعدد الزوجات للراغبين فيه من الرجال، وإنشاء إدارة للأطفال تختص بجميع الأمور المتعلقة بالطفل علي مستوي الدولة، ولكن اقتراحه أغفل تحديد المواصفات التي يجب أن تتوفر في شخصية الوزير المؤهل لتسلم تلك الوزارة الجديدة الحساسة، فمن الممكن أن يكون الوزير امرأة كلما تزوجت دفنت زوجها بعد أشهر قليلة، وتزوجت غيره، ومثلها يعرف الحلو والمالح والمر في الحياة، ومن الممكن أن يكون الوزير عازباً متلهفاً علي الزواج، ولا يري سوي محاسنه وعسله، ومن الممكن أن يكون الوزير مطلاقاً مزواجاً اهترأت أحذيته في الركض من محكمة إلي محكمة، وامتلك خبرة تؤهله بجدارة لأن يكون أول وزير للزواج.

ولا شك في أن تنشيط الزواج يكتسب في الوقت الراهن أهمية خاصة لكونه الوسيلة الوحيدة المتبقية التي لا يزال العرب يملكونها في مواجهتهم العدو الصهيوني، فهو يشن عليهم حملات إبادة، وهم يتوالدون ويتكاثرون.

ولا شك أيضاً في أن تنشيط الزواج وتنظيمه والترويج له يستحق أن تعني به الحكومات العناية الخاصة، وتصبح المهمة الوحيدة لكل حكومة تقتصر علي قضايا الزواج والطلاق بعد أن ثبت فشلها في كل المجالات الأخري، وجعلت البلاد التي ترعي شؤونها أنقاضاً وأطلالاً ونوعاً غير مألوف من المقابر، أحياؤها أموات وأمواتها أحياء.

ومن المؤكد أن حياة الناس بغير حكومات لن تكون بالحسنة، ولكنها ستكون حتماً أفضل مما كانت عليه في السابق، ومصيبة تصغّر خير من مصيبة تكبّر، وحين تصبح المهمة الوحيدة للحكومات العربية هي معالجة قضايا الزواج والطلاق، فأي إخفاق لها لن يؤثر إلا في حياة الزوج والزوجة فقط بينما كان إخفاقها السابق في القضايا السياسية والدفاعية والاقتصادية والتعليمية والإعلامية يشوه وطناً بأكمله، ويدمره بتشف وبراعة.

تزفيت الوطن والمواطن!

أذيع البلاغ رقم واحد الذي زفّ إلي المواطنين العرب البشري بوقوع أول انقلاب عسكري، سيحرر الأرض من الاحتلال والاستغلال، وينقل الجنة من السماء إلي الأرض، ويهب قصورها مجاناً للمواطنين قاطبة، فبادرت المرأة الغريبة الأطوار والمسماة بالحرية إلي الخروج من بيتها في الوطن العربي، ولم تعد إليه، واختفت كأنها لم تكن يوماً موجودة، فتساءل عنها الناس بقلق، وظنوا أن سيارة مسرعة أو دبابة قد دهستها، ولكنهم لم يجدوا اسمها في سجل أي مستشفي أو مخفر شرطة، وتذكروا أنها كانت تدّعي امتلاك قدرات ستتيح لهم أن يتكلموا متي شاؤوا معبرين عن كل آرائهم من دون خشية من أحد، وأن يختاروا نوابهم في البرلمانات وحكامهم ودساتيرهم وقوانينهم ونوع الحياة القادر علي إسعادهم.

وقد رجح الناس أن اختفاءها غير المسوغ ربما كان سببه أنها قد فقدت ذاكرتها فجأة، ولم تعد تتذكر أنها تملك بيتاً في الوطن العربي أو أنها آثرت الهجرة إلي بلاد قصية وطابت لها الإقامة بها إلي حدّ أنها نسيت وطنها الأصلي أو أنها اعتقلت لكونها لا تملك بطاقة هوية، ولكن كل السجناء المطلق سراحهم نفوا بثقة أنها مسجونة، ولما تعاقبت الأحداث التي برهنت للناس أن حاكمهم هو الحر الأوحد، ولم يخلقوا إلا لخدمته وإطاعته وتمجيده، تأكدوا من أن الحرية قد قتلت ودفنت في مكان مجهول، ولكنهم لم يقنطوا، وظلوا يطمحون إلي الاهتداء يوماً إلي قبرها حتي يزوروه طالبين منها أن تقهر موتها وتعود إليهم، ولو عادت إليهم لما عرفتهم، فالذين كانوا يؤمنون بأنهم قادرون علي تغيير العالم لم يعودوا قادرين علي تغيير جواربهم، والذين كانوا يحلمون بهدم كل السجون بنوا السجون في أفواههم ورؤوسهم، والذين كانوا يحملون المعاول والرفوش لحفر القبور لكل الأوثان تحوّلوا عبيداً لها، والذين كانوا يضحكون بغير سبب باتوا لا يضحكون إلا في الأعياد الرسمية، والذين كانوا رعوداً منذرة بأشرس العواصف أصبحوا أحذية

مهترئة، والذين كانوا جياداً غير مروضة صاروا دجاجاً يقوقيء ويبيض، ولكن الحرية لن تستغرب ما جري لهم، فما إن تختفي الحرية من حـــياة الناس حتي يسود الانـهيار.

فاقضِ ما أنتَ قاضٍ

دخل جنود إسرائيليون مكتبة عامة فلسطينية شاهري السلاح متأهبين لإطلاق النار، ولم يجدوا فيها أي مخلوق حي، ولكن الكتب المصطفة علي الرفوف الخشبية تصايحت مذعورة، ورفعت أيديها إلي أعلي مستخدمة صفحاتها الخالية من الكلمات المطبوعة رايات بيضاً، فلم يأبه الجنود لها، ورموها أرضاً، واحترق عبد الله بن المقفع ثانية واغتيل المتنبي اغتيالاً آخر أبشع.

وعاد جندي إسرائيلي إلي بيته مساء بادي الإرهاق، فسألته زوجته: أأنت جائع لأعد لك طعام العشاء؟ .

فقال لها الجندي بصوت متذمر: قتلت وقتلت من الصباح إلي المساء حتي شبعت .

فسألته زوجته بفضول: وكم رجلاً قتلت؟ .

فضحك الجندي، وقال لها معاتباً: أنت دائماً تهتمين بالرجال. لماذا لم تسألي عن النساء والأطفال؟ .

ومشت فتاة فلسطينية في السادسة عشرة من عمرها في الشارع المملوء بأعدائها، يرغمها الحزام الناسف الملتف حول بطنها علي أن تكون بطيئة الخطوات، وقالت لنفسها: ليس لدي ما أخشي فقده لحظة أنفجر وسط الأعداء سوي حياتي التي هي أثمن ما أملكه، ولكنها تصبح رخيصة، ويمكن التخلي عنها بسهولة إذا كانت الغاية هي إثبات أن كل أرض تدوسها أقدام الإسرائيليين لا تُعطي لهم، ولن تكون ملكاً لهم، وأوراقهم العتيقة تحتاج إلي تنقيح وتعديل وطبعة جديدة تعطي لكل ذي حق حقه.

لن يقول لي رجل إنه لا ينام الليل لأنه يحبني، ولن أكون أماً يتحلق أبناؤها حولها متشبثين بأطراف ثوبها متصايحين، ولن أكون امرأة تشتري الخبز ساخناً من الأفران ليأكله أطفالها ورجلها، ولن أكون جدة يطالبها أحفادها بأن تروي لهم الحكايات المسلية المشوقة، ولن أكون سوي فتاة خائفة، يتواري خوفها لتحل محله فلسطين تئن وتهان ويُمزق لحمها وتستغيث بأبنائها الصغار والكبار والرجال والنساء، ولن يغيثها إلا الذين يعاملون ترابها علي أنه أغلي من دمائهم.

وبوغتت الفتاة بأن خطواتها تسرع كأنها لن تلاقي الموت بعد لحظات.

وقال طفل إسرائيلي لأمه وهو يستعد للنوم: أتمني أن أكبر بسرعة حتي أقتل كل الفلسطينيين، ولن أترك واحداً منهم حياً .

فنظرت إليه أمه بحنو ممزوج بالزهو، وقالت له: حين تكبر، ستجد أن أباك ورفاقه لم يتركوا لك من تقتله .

ضاقت الأرض

كل دولار تنفقه إسرائيل علي الدعاية لها ولسياستها لا مسوغ له وتبديد أحمق للمال ما دامت محطة سي ان ان موجودة تلاحق مشاهديها أينما كانوا. وقد نشط مراسلوها إبان زيارة كولن باول وزير الخارجية الأمريكية للشرق الأوسط، وأكثروا من إجراء المقابلات مع مسؤولين إسرائيليين يتذمرون من فلسطينيين يرغمونهم علي قتلهم، ومع نواب أمريكيين يتملقون إسرائيل كأنها القوة العظمي في العالم وأمريكا هي إمارة موناكو، ولو كانت آراؤهم معبرة بصدق عن مواقف ناخبيهم، فهذا يعني بوضوح أن جهنم الإسرائيلية أقل سوءاً من الجنة الأمريكية.
أما الآراء العربية، فتحرص المحطة علي تقديمها في سياق يظهرها متهافتة هزيلة غير مقنعة، ولكن كل ما تخطط له المحطة لا تدركه دائماً، وتباغت أحياناً بمفاجآت لا تتوقعها، ولا تخدم غاياتها، فقد أجري أحد مراسليها في إسرائيل مقابلة مع طبيبين نفسيين حول آثار الحرب، أحدهما إسرائيلي من القدس، والآخر فلسطيني من غزة، وكان الطبيب الإسرائيلي شاحب الوجه، هزيلاً كأنه ليس مواطناً في دولة أكلت فلسطين بأكملها من دون أن تتجشأ، ويتطلع باستمرار في ما حوله كالفأر المذعور، وقد قال وهو ينظر بخوف إلي ما حوله إن الإسرائيليين لا يخافون من العمليات الانتحارية بل هم غاضبون منها، وحملق إلي الكاميرا بنظرات زائغة كأن المصور التلفزيوني انتحاري متنكر. أما الطبيب الفلسطيني، فقد أجاب عن كل سؤال بصدق وبساطة وإيجاز، وقال إن حرب إسرائيل علي الفلسطينيين أثرت في الأطفال حتي باتوا يخشون من النوم مقتنعين أن القصف الإسرائيلي سيميتهم وهم نيام، وسأله المراسل عن رأيه ورأي الفلسطينيين في العمليات الانتحارية، وكان المراسل يتوقع أن يكون الجواب منددا بها، ومشابهاً لما يسمعه عادة من العرب، ولكن الطبيب قال له إن إسرائيل تستخدم في حربها علي الفلسطينيين أسلحة تدمير حديثة لا يملكها الفلسطينيون، وليس لديهم ما يردون به سوي هذه القنابل البشرية، وقال إن المجتمع الفلسطيني ينظر إلي منفذي العمليات الانتحارية بوصفهم أبطالاً، فسارع المراسل إلي إنهاء المقابلة بامتعاض قائلاً له إنه سيلتقيه ثانية، ولم يتضح ما إذا كان قوله مجاملة أو تهديداً بأنه سيقابله ثانية حين يسجن بتهمة الدعاية للإرهاب.

ولسوف يعطيك ربك

في أيام الشدائد والمحن، تختفي كل الحواجز، وتتواري كل الفوراق، ويسود التواضع، ويصبح الناس أجمعون إخوة متآلفين، ولا مكان وقتئذ للشكليات الجوفاء، فلم نهتم بإيجاد من يعرّفهم بنا أو يعرّفنا بهم، وسألنا هؤلاء المجهولين المعروفين الأموات الأحياء: هل تنبهتم وأنتم تناهضون الردي لخطورة قراراتنا وبراعة صياغتها وجمال ألفاظها وبلاغة معانيها؟ وهل تعرفون كم اجتماعاً عقدنا لمناصرتكم وكم ساعة استغرق كل اجتماع؟ وهل ضحكتم بتشف وزهو بعد أن ثأرنا ممن سفك دماءكم وصرنا نصافحه بفتور كلما التقيناه؟ وهل رأيتم أحزاننا كيف تحولت طيوراً سوداً تحلق في سماء زرقاء ملطخة بالدخان؟ وهل بلغت

مسامعكم أصواتنا المؤيدة لكم والملأي بالسخط المتزن المدروس أم أنها ضاعت وسط دوي القنابل المتساقطة؟ وهل نميت إليكم أنباء تأهبنا لنجدتكم وأوامرنا السرية إلي حراسنا بأن يستيقظوا من نومهم، فأطاعوا حالاً، وها هم قد بدأوا بفرك عيونهم والتثاؤب وانتظار القهوة السوداء؟ وهل تريدون منا الأسلحة سكاكين مرهفة النصال أم عصياً تصدع الرؤوس؟ وهل تسلمتم الأكفان الغالية السعر التي تبرعنا بها، حريرها طبيعي وألوانها منتقاة بدقة حتي تلائم كل الأذواق؟ وهل خمنتم كم دفعنا للسحب لإغرائها بألا تمطر فوقكم وتلوّث أحذيتكم بالطين؟ وهل اطلعتم علي بيوت من شعرٍ نُظم علي عجل بدلاً من بيوتكم التي تهدمت؟ وهل لا تزال أجهزة تلفزيوناتكم صالحة للسهر المسلي أم أنها تحطمت وباتت محتاجة إلي تجديد كلي؟ وهل سرّ أطفالكم الأعزاء بما بعثنا به من ألعاب مرحة مشوقة لتدفن معهم في قبورهم الصغيرة؟ وهل سررتم بهدايانا من أدوية السعال مستساغة لذيذة ذات نكهة معطرة ومستوردة من باريس ومعبأة في علب ملونة لا تضارع في أناقتها؟ وهل كانت الأحذية الرياضية المرسلة إليكم من قبلنا لممارسة رياضة المشي إثر كل وجبة طعام كافيةً أم أنكم تحتاجون إلي المزيد منها؟ وهل وصل إليكم ما أرسلناه من صابون مصنوع من زيت الزيتون النقي لغسل أيديكم قبل الطعام وبعده؟ .

وسألنا هؤلاء الأموات الأحياء بأصوات توشك أن تغضب من ناكري الجميل: لماذا لا تجيبون؟ هل شُلّت ألسنتكم فرحاً باكتشافها أن لكم إخوة لم تلدهم أمهاتكم؟ .

لا الفلسطينية

اقتحم جنود إسرائيليون مدججون بالأسلحة مكتب الشاعر الفلسطيني محمود درويش في مدينة رام الله، فلم يجدوا الشاعر، ولكنهم وجدوا مكتبه يغصّ بالحروف العربية المتناثرة بفوضي ما عدا حرف الألف وحرف اللام اللذين كانا وقورين غير هيابين مفعمين بالتحدي، وسارع أحدهما إلي الالتصاق بالآخر، وشكّل التصاقهما لا الناهية النافية العاطفة اللامبالية بالبنادق المسددة إليها، وهمّ الجنود بإطلاق النار عليها إطاعة لما كان قد صدر إليهما من أوامر صارمة صريحة تنصّ علي القتل الفوري، وتحظر الأسر والاعتقال، ولكن سمعوا من قائدهم أمراً مختلفاً إذ أحس أنه قد عثر مصادفة علي ما هو بالغ الأهمية، وقد تكون هذه المرشحة للاعتقال منجماً غنياً بالمعلومات الثمينة عن الارهابيين والارهاب.

ولما تأكد الجنود من أن لا غير مسلحة، وغير مطوقة الخصر بحزام متفجرات، انقضوا عليها، واعتقلوها، وساقوها إلي التحقيق الذي أرغمها علي البوح بكل ما ارتكبته من مخالفات للقوانين الإسرائيلية والأمريكية، فقد اعترفت بأنها هي التي اغتالت الرئيس المصري أنور السادات، واعترفت بأنها المالكة الوحيدة لمدرسة تخرّج العصاة والمتمردين، واعترفت بأنها هي التي حرضت الفلسطينيين علي عدم نسيان أرضهم التي لم تعد أرضهم، وأغرتهم بالعصيان والعنف وطلب الاستقلال وطرد الاحتلال وازدراء الموت، واعترفت بمسؤوليتها المباشرة ودورها الأول في التخطيط لكل العمليات الفلسطينية الاستشهادية، واعترفت بأنها هي السبب في صحوة الجماهير العربية من سباتها ونزولها غاضبة إلي الشوارع التي كانت مجرد ممرات آمنة للمشاة والسيارات، واعترفت بأنها هي التي دفعت الوطن العربي إلي كره أمريكا وإسرائيل من

دون أن يخشي قوتهما المدمرة، واعترفت بأنها هي التي تبثّ الأرق والرعب في قصور الحكام العرب. ولم يصدق المحققون تلك الاعترافات المخادعة، وبدا لهم أن لا مجرد معتوهة تنتحل أعمال غيرها لتضفي علي شخصها بعض الأهمية، وأمروا جنودهم بإعدامها، فبادر الجنود إلي الإطاعة فوراً، وخيل إليهم أنهم قضوا عليها بعد أن أطلقوا عليها ما يكفي لقتل المئات، ولكنهم فوجئوا في ما بعد بأنها لا تزال حيّة في كل مكان فلسطيني يتواجدون فيه، وكلما فارقت جسداً هامداً حلّت في أجساد أخري تمور بالحياة.

البرتقال يكره أيضاً

في أوائل الأربعينيات، كنت طفلاً يعيش في دمشق، ويحلو له التفرج علي دكاكين بائعي الفواكه التي كانت تمتليء آنذاك بالبرتقال المستورد من فلسطين.. البرتقال اليافاوي والبرتقال الشموطي والبرتقال أبو سرة، وكان البرتقال فاكهتي المفضلة، ولكني كنت في الوقت نفسه محباً لكل أنواع الفاكهة والخضروات إذ كنت أكره اللحم وآكل كل ما هو نباتي حتي أن أمي كانت تقول لأبي: لدينا خروف يصلح لعيد الأضحي، ولن نحتاج إلي شراء خروف آخر .

وكان البرتقال الفلسطيني آنذاك هو سيد البرتقال عصيراً ونكهة ومذاقاً وطعماً ورائحة، ويُقشر بسهولة بأصابع اليدين مثلما تقشر الموزة، ومن غير حاجة إلي السكين، ولم أكن شاذاً في هذا التصرف، بل كنت أتصرف مثل غيري، فالبصل للطهو يُقطّع بالسكين، أما البصلة اليابسة التي ستؤكل نيئة مع الطعام، فتوضع علي سطح صلب، وتهوي عليها قبضة قوية لتهرسها بحجة أن السكين تفقدها نكهتها، والشخص الذي يُضبط وهو يقشر سفرجلة ويقطعها بالسكين، يُعامل كأبله.

وقد أتيح لي في ما بعد أن آكل برتقالاً متعدد الجنسيات، ولكن البرتقال الفلسطيني ظل هو المفضل، وعندما أقمت في بريطانيا، وجدت أنها تستورد البرتقال من إيطاليا واسبانيا واليونان والمغرب وإسرائيل، وفي يوم أغبر اشتقت إلي برتقال فلسطين، فاشتريت برتقالة إسرائيلية متجاهلاً قوانين المقاطعة العربية للمنتوجات الإسرائيلية، وقلت لنفسي مسوغاً شراهتي غير الوطنية: هذه برتقالة فلسطينية بريئة، نبتت في أرض فلسطينية استولي عليها الإسرائيليون بالقوة ، ولكني لما أكلتها تذمرت كأني كنت آكل الجنرال موفاز، فقد كانت البرتقالة بغير طعم لا تختلف عن الفواكه الأخري التي لها شكل لائق، وليس لها أي طعم أو نكهة، فأحسست بالفرح والشماتة، وبدا لي أن البرتقال الفلسطيني يكره الإسرائيليين أيضاً، وعندما أُرغم علي العطاء لم يعط إلا ما يعبر عن كرهه لهؤلاء الأغراب الذين لا يمتون إليه بصلة، وآكلو لحوم البشر يزعمون أن لحم المأكول الذي يُقتل مهاناً معذباً لا يكون شهياً مثل لحم المأكول الذي يقُتل فجأة وهو يضحك.

الجنرال يمتحن جيشه

1 ـــ سأل الجنرال جنوده: ماذا تفعلون حين تغزون قري ليـــــس فيها إلاّ الأطفال والنساء؟ .
فأجاب الجنود: نذبح الأطفال والنساء القبيحات ونبيع النساء الجميلات للملاهي بعد اغتصابهن، ونقطع الشجر، ونردم الآبار، ونسمم الأنهار .
سأل الجنرال جنوده: وماذا ستفعلون بمدائن عزلاء استسلمت بغير قتال؟ .
فأجاب الجنود: نشنق رجالها ونحرق بيوتها ومتاجرها ومعابدها .
سأل الجنرال جنوده: وماذا تفعلون بالجرحي؟ .
فأجاب الجنود: نصغي إلي أنينهم الشبيه بالغناء ونحن ندخن السجائر .
سأل الجنرال جنوده: ماذا تفعلون بالجرحي؟ .
فأجاب الجنود: نستخدمهم مصيدة لقتل أطبائهم الهارعين لاسعافهم .
سأل الجنرال جنوده: وماذا تفعلون بكلّ أرض تحتلونها؟ .
فأجاب الجنود: ستصبح الأرض أرضنا وأرض من يرثنا ويأتي من بعدنا .
سأل الجنرال جنوده: ومن هم أعداؤكم؟ .
فأجاب الجنود: كلّ الناس ما عدا أولادنا وأحفادنا .
فسرّ الجنرال بأجوبة جنوده، وأهداهـــــــــم أسلحة حديثة غير معروفة قائلاً لهم: هذه الأسلحة كفيلة وحدها بإبادة أعدائكم بغير تعب .
فشكر الجنود لجنرالهم هداياه الكريمة، ولكنّهم لم يستخدموها لأنّها تسلب مهنة القتل قدراتها علي الإمتاع والتسلية.
2 ـــ سأل الجنرال جنديه الجديد: ماذا تري حين تنام؟ .
فأجاب الجندي: أري أنّي طفل يلعب مع أطفال يتقاذفون بأقدامهم رأساً مقطوعاً بدلاً من الكرة .
سأل الجنرال جنديه الجديد: متي تضحك؟ .
فأجاب الجندي: أضحك فقط حين أؤمر .
سأل الجنرال جنديه الجديد: ومتي تحزن؟ .
فأجاب الجندي: أحزن إلي حد الجنون حين أري أحياء تمنعني الأوامر من قتلهم .
سأل الجنرال جنديه الجديد: بماذا تفكر وأنت تقتل خصماً؟ .
فأجاب الجندي: أفكر باحثاً عن أسلوب مختلف أقتل به الخصم الثاني حتّي لا أقلّد ما فعلته في المرة الأولي .
فابتسم الجنرال معجباً بمن لا يزال محتاجاً إلي مزيد من الإعداد والتدريب.
3 ـــ أمر الجنرال جنوده بالنوم، فناموا فوراً، ورأوا في أثناء نومهم أنهم أطفال صغار يسبحون في بحر ذي ماء أحمر اللون مطلقين الصيحات المرحة.

العلقم التاريخي

ما إن استغاثت أول قطرة من الدماء الفلسطينية المسفوكة بغير حساب حتي ساد الأرق وغضبة الحليم في دول تعتز بوفائها للتقاليد والعادات العربية الأصيلة، وسارعت إلي تلبية الاستغاثة بحماسة، وأرسلت إلي فلسطين المحتلة جيشاً خاصاً يختلف عن جيوشها الخبيرة بتقديم الاستعراضات العسكرية الفخمة، والمختصة بالظفر بالانتصارات النكراء، ولم تؤلّفه إلا بعد أن درست الأمر ملياً، ووصلت إلي الأسس والقواعد التي تكفل له الانتصار الساحق في كل معركة يخوضها، وجعلته ذا مواصفات تمكنه من أداء واجبه خير أداء.

وسار الجيش الأبي نحو فلسطين السليبة سيراً حثيثاً، فارتقي الجبال، واجتاز الأودية، ومشي في السهول وعلي وجه الماء.

في الصفوف الأولي من الجيش، سار المشاهير من آكلي الخراف والدجاج، يتبعون بوقار بطونهم المتألفة من طبقات من الشحم، يتراكم بعضها فوق بعض متحدياً الطلقات النارية العاجزة عن النفاذ إلي داخله، والمحكوم عليها بأن ترتد عنه خجلي وخاسرة، فإذا تجمع هؤلاء الرجال في كتلة واحدة، تحولوا فوراً إلي ما يشبه سور الصين، ولا يختلف عنه إلا بكونه قادراً علي التقدم والتقهقر.

في الصفوف الثانية سار الإعلاميون الرسميون، تتدلي ألسنتهم من أفواههم كأنها سعف نخيل أو ذيول جياد متباهية بأنها القادرة علي تصوير الصيف علي أنه شتاء فيه ظلمات ورعد وبرق.

في الصفوف الثالثة، سار رجال الشرطة والمفكرون الحكوميون مزودين بأحدث المعدات التي تجعل عمر المختار يعترف بأنه هو الذي اغتال هابيل لقاء حفنة من الدولارات.

في الصفوف الرابعة، سار الجزارون الذين ملّوا ذبح الخراف، وتاقوا إلي بعض التجديد.

في الصفوف الخامسة، سار الأطباء الذين لو لم يكونوا أحياء لاشتكي الموت من البطالة.

في الصفوف السادسة، سار المختصون ببناء السجون التي تعجز الطيور عن الفرار منها.

وما إن وصل الجيش إلي أهدافه المحددة له بدقة حتي خاض المعارك تلو المعارك، والتي أسفرت عن جبال من جماجم الأعداء، وقد تبين في ما بعد أن الجيش ضلّ طريقه بسبب تشويش في الخرائط، ولم يتح له الوصول إلي أرض فلسطين السليبة، وكانت ضحاياه كالعادة أناساً يحملون الجنسية العربية علي مضض، وكانوا مصادفة من الذين يزمع أولادهم بعد مائة سنة أن يصبحوا من العصاة الناقمين علي حكوماتهم، فاقتضي التنويه.

يحقّ لكم..

يحق لنا أن نسير في المظاهرات الغاضبة، ونصرخ بحماسة حتي تبحّ أصواتنا آملين أن تلمحنا الكاميرات التلفزيونية لتؤرخ مواقفنا الوطنية والقومية والإنسانية، فهذا كل ما نستطيع تقديمه للذين يموتون مقتولين مظلومين، فمن يُقدم لضيوفه كل ما في بيته من طعام قليل قد يتهم بالفقر ولا يتهم بالبخل..

ويحق لنا أن نتباهي بسواعدنا القوية، فلا وجود لصديق لنا لم نتحداه ونتغلب عليه ونطرحه أرضاً ونجعله أضحوكة..

ويحق لنا أن نتدرب ليل نهار علي الركض أسرع من الصوت، فالحياة عقيدة وجهاد ووقفة عزّ، والحرب خدعة، والحرب كرّ وفرّ..

ويحق لنا التفاخر ببسالتنا وشجاعتنا وصمودنا وبطولاتنا، فالعدو احتل بعض بلادنا فقط، ولم يحتلها بأكملها..

ويحق لنا أن نمجد أجدادنا لعلهم يكفون عن إنكار وجود أية صلة لهم بأحفادهم..

ويحق لنا أن نضرب أطفالنا الضرب الموجع بغية تعريفهم إلي بعض ما سيحلّ بهم حين يكبرون، ونحن نهرف بما نعرف..

ويحق لنا أن نضحك، فقاتلنا لن يؤجل عمله إذا رأي وجوهنا عابسة..

ويحق لنا أن نتكلم من غير توقف، ففي القبر الموحش سنحرم الكلام، وقد لا نجد من نكلمه ويكلمنا..

ويحق لنا أن نأكل الأخضر واليابس، فحتي أشجار الفاكهة لا تزهر ولا تثمر إذا لم تحصل علي السماد الكافي..

ويحق لنا أن نبتعد بنفور وعداء عن كل ما هو مصنوع من ورق مطبوع، فقد خرجنا من بطون أمهاتنا متخمين بأشمل ثقافة..

ويحق لنا أن نتذمر من زوجاتنا وأولادنا وجيراننا وأطبائنا وجرائدنا وأدبائنا وأفلامنا حتي لا نتذمر من حكام أشباح هم الماء المالح والسمك الفاسد والهواء الملوث، والتذمر الأول مؤدب حكيم مستساغ مشوق، والتذمر الثاني مجلب للمهالك..

ويحق لنا الإيمان بأن حياتنا هي جهنم، ولن يُحكم علينا بعد مماتنا بجهنم أخري حتي لو كانت ذنوبنا جبالاً..

ويحق لنا أن ننتحب مبتهلين إلي الله أن يغيثنا بجنود من عنده غير مرئيين لإنقاذنا من جنودنا البسلاء..

ويحق لنا أن ننام نوماً عميقاً طويلاً لا نهاية له، فليس لدينا ما نفعله إذا ما استيقظنا.

لا تتجاهلوا كلبه!

يتكاثر اليوم في العالم السياسي عدد التواقين إلي الظفر برضا الرئيس الأمريكي من دون أن يوفقوا أدني توفيق لكونه جفظاً جعظاً جنعاظاً حتي أنهم صاروا فرائس لقنوط يجعل الدم ماء وسخاً متناسين أن الحياة

شجرة فاكهة لا تهب ثمرها إلا للمجتهد الأريب الذي ما إن يواجه باباً مقفلاً حتي يشمر عن ساعديه وركبتيه باحثاً عن المفتاح المناسب، ولا وجود في الأرض لباب بغير مفتاح.

ولا أحد منهم ليس بالمجتهد، وسيكتشفون بعد تفكير قصير خطأهم الجسيم عندما اهتموا بالرئيس وحده، ولم يهتموا بكلبه وما له من مكانة مرموقة لا تخفي علي كل ذي بصر وبصيرة، فالرئيس لا يدلي بتصريح بالغ الأهمية إلا ويده تلامس عنق كلبه، ولا يعلن قراراً خطيراً إلا وهو يداعب كلبه بأصابع تذوب حناناً ورقة، ولو حاولوا أولاً الظفر برضا الكلب لما كان الظفر برضا سيده صعباً، ولن يضيرهم نبذ أصواتهم البشرية وإتقان النباح بشتي أنواعه وأشكاله، فكل الوسائل مستحسنة إذا كانت الغاية سامية كغايتهم.

ولن يضيرهم أيضاً أن يتخلوا عن المشي علي قدمين، فهو موضة متخلفة لا تتلاءم مع ما في العالم من متغيرات ومستجدات جديدة، وسبق لهم أن كانوا رواداً في المشي علي أربع في المجالات السياسية والفكرية، وآن الآن لمشيهم أن يتطور ويتجدد، وسينسون كل عنائهم لحظة يبتهج كلب الرئيس وهو يراهم يدبون علي أربع مقبلين مدبرين.

ولن يضيرهم امتلاك الذيول الأصيلة، فلديهم الكثير من المال الآتي بغير تعب، وفي استطاعتهم إغراء أشهر مصممي الأزياء في العالم بابتكار ذيول بالغة الأناقة والفخامة، فهذا ذيل إيف سان لوران للنحيف، وذلك ذيل أرماني للسمين، وذاك ذيل شارل جوردان للبطين. أما إضافة الذيول إلي الأجسام، فالطب الحديث يحوّل الكركدن عصفوراً دورياً.

ولعل الرئيس حين يلمحهم يتهارشون مرحين مع كلبه سيُعجب بهم إلي حد أنه قد يطرد كلبه، ويستخدمهم بدلاً منه، فينالون ما كانوا يصبون إليه، ويصبحون من كلاب الرئيس لا من رجاله، والفرق لا يؤبه له إذا كانت الغاية سامية كغايتهم.

الكراسي المجنحة

الكراسي ليست متشابهة، فالكرسي الذي يجلس عليه الزوج التعبان مساء قبالة جهاز التلفزيون يختلف عن الكرسي الذي يجلس عليه ضابط الشرطة الماثل أمامه متهم يابس الرأس يأبي الاعتراف بما هو مطلوب منه علي الرغم من أنه تعرض لشتي أنواع التعذيب، والكرسي الذي يجلس عليه مواطن في مقهي ليس كالكرسي الذي يجلس عليه أستاذ جامعي منهمك في التحدث إلي طلابه وهو يشعر أنهم صلصال يتكوّن بين أصابع يديه مثلما يريد، والكرسي الذي يجلس عليه الموظف الصغير لا علاقة له بالكرسي الذي يجلس عليه الوزير محاطاً بمن هم مستعدون لإطاعة الأوامر قبل أن تصدر، والكرسي الذي تجلس عليه امرأة في عيادة طبيب محتضنة طفلها المريض ليس كالكرسي الذي يجلس عليه صحافي يكتب كل يوم موزعاً نصائحه علي رؤساء دول العالم، وما يكتبه هو أوامر صارمة تنكرت في هيئة نصائح أخوية، والكرسي الذي يجلس عليه التلميذ يوم الامتحان ليس كالكرسي الذي يجلس عليه المليونير المتذمر من عجزه عن إحصاء الملايين التي يملكها، والكرسي التي تجلس عليه طفلة في حديقة عامة ليس كالكرسي الذي يجلس عليه الراغب في بيع بلاده شققاً مفروشة وبأسعار مخفضة غير قابلة للمزاحمة.

الكراسي ليست متشابهة، فولاة الأمر لهم كراسيهم الوثيرة التي يتقنون الحفاظ عليها، ولكنهم في الآونة الأخيرة تبدلت أحوالهم، وتحوّلوا قطعاً من اللحم المقدد ترتجف فزعة من مستقبل غامض مجهول، وشعروا أول مرة في حياتهم أن كراسيهم تبدلت أيضاً، وتمتلك أجنحة غير مرئية، وتتأهب للطيران بعيداً عنهم، فسارعوا قبل أن يفوت الأوان إلي فعل كل ما يسعد حاكم العالم، الخافض، الرافع، وصانع الكراسي ومختلق القاعدين عليها بغية إقناعه بأنه لن يجد خدماً أخلص وألطف، ولكن كل ما فعلوه كان بغير جدوي، ولم يحظ إلا بمزيد من الغضب والإزدراء، وتابع حاكم العالم القادر علي الخفض والرفع تفحص جحافل المرتزقة لاختيار من يراه مناسباً للجلوس علي تلك الكراسي، فحمد المواطنون الله الذي لم يجعلهم من الجالسين علي كرسي من تلك الكراسي، وهم لا يبالون بها سواء أبقيت أم تلاشت، ويفضلون القعود علي أرض سيدفنون يوماً تحت ترابها.

الرُغام

يُهمل المعلم تدريس تلاميذه، فيُوبخ، ويُعاقب بحجة أن ما فعله مسيء إلي مستقبل الأجيال الصاعدة.

ويهمل الطبيب علاج مريض من مرضاه، ويكون إهماله سبباً في وفاته، فيعتقل، ويحقق معه، ويحاكم ويسجن.

ويهمل الأديب في الكتابة، وينشر ما هو رديء، فيبتعد عنه القراء، ويشهر النقاد عليه هرواتهم وسيوفهم، وينهالون عليه حتي يوشك أن يعلن التوبة عن الكتابة.

ويهمل الطيار في قيادة طائرته معرضاً أرواح ركابها للخطر، فلا ينجو من حساب عسير وعار يلاحقه إلي القبر.

ويهمل المهندس المعماري، وتنهار بناية من تصميمه وتنفيذه، فيصبح تواً مواطناً في جمهورية الأقفاص.

ويهمل مذيع قواعد اللغة وهو ينطق جملة ما، فيطوق فوراً بالسخرية المرّة، ويُنصح بالعودة إلي مدارس مكافحة الأمية.

وتهمل الزوجة قليلاً تدليل زوجها الراغب في أن يكون الرجل الوحيد علي سطح الكرة الأرضية، فيزمجر الزوج ويزأر، ويهرع حافياً إلي المحاكم الشرعية.

كل الناس في البلاد العربية يحاسبون ويعاقبون حين يُهملون ما عدا الحكومات، فكلما أهملت أحيطت بشهقات الإعجاب والتقدير، وكلما أخطأت انهمر عليها الدعم من كل حدب وصوب، وكلما أثبتت أنها لا تصلح لرعاية بقرة جُدد تكليفها برعاية حياة الملايين من الناس، فما هو مهم بالنسبة إليها هو أن تخدم مصالح الحاكم فقط الذي عيّنها لا أن تخدم مصالح الناس، ومصالح الناس ومصالح الحاكم كالنار والثلج لا يمكن الجمع بينهما، وخدمة مصالح الناس هي المسوغ الأول لوجود أي حاكم، ولكن لكل زمان حكامه، والزمان الحالي يزخر بحكام لا يسعدون مواطناً، ولا يخيفون عدواً، ويعاملون الوطن كأنه مجرد قطعة أرض هم مالكوها الوحيدون، ويتصرفون يومياً كأن كرمهم وطيبة قلوبهم هما المسؤولان عن السماح للناس بالاستمرار في العيش في أملاكهم، وليس من المستغرب أن يذاع قريباً عن حاكم زعل من شعبه غير

المهذب وطرده شر طردة، وليس من المستغرب أيضاً أن يسأم أحد الحكام من انتقادات الإعلام الغربي له واتهامه بمعاداة الديمقراطية، ويقرر إتباع النظام الديمقراطي، ويجري انتخابات حرة نزيهة، ويشارك فيها بوصفه المرشح الوحيد والناخب الوحيد، وسيحق له فيما بعد التفاخر بكونه حظي بثقة نفسه.

قش يحترق!

ما هذا البيت الغريب الأطوار؟

عقلاؤه بلهاء، ورجاله المشهورون بعلمهم جهال، وأبطاله الرسميون المثقلون بالأوسمة مجرد دمي.

ما هذا الشارع البليد الغبي؟

كل من امتلك قدمين مشي عليه سواء أكان صديقاً أم عدواً.

ما هذا المطر المزهو بعماه؟

يروي حقولنا، ويروي أيضاً حقول أعدائنا، ولا يفرق بين ضحية وقاتل.

ما هذا الراعي الذي لا قلب له؟

يتفرج علي خرافه تمزقها الضباع كأنها ليست خرافه، ولا يحاول إنقاذها وحمايتها متناسياً مخازنه الملأي بالسلاح.

ما هذا القفص المبهج المغري الغامض؟

كلما فُتح بابه سارع المسجونون في داخله إلي إغلاق الباب هلعين.

ما هذه المرأة الملطخة الشفتين بالدماء؟

تحب من يزدريها، وتمقت أبناءها، وتشردهم في أرجاء الأرض.

ما هذا السجن الشره الظاميء؟

ما إن يخرج منه إثنان حتي يدخل إليه بدلاً منهما عشرة.

ما هذا التراب السخي؟

يُنبت في رقعة واحدة شوكاً ووردا.

ما هذه الكتب المبجلة؟

يطالعها الجاهل، فيزداد جهلاً، ويطالعها المثقف، فتتضاءل ثقافته.

ما هذا الجد الأناني؟

يورث أحفاده جثثاً بلا قبور، ويوصيهم بالإنصات لها وإطاعتها والانتفاع من حكمتها.

ما هذه الغربان الناعبة الشبيهة بسحابة سوداء ممزقة؟

تتجمع وتحوم فوقنا كأننا لسنا أحياء متوهمة أننا جيف قادرة علي الحركة.

ما هذا الموت الغريب الطباع؟

يطارد بغير هوادة الهاربين منه، ويهرب ممن يلاحقه متوسلاً.

ما هذا الليل المفترس؟

نناشده بضراعة حتي يأتي ويمنحنا نوماً حافلاً بالأحلام السعيدة، فيأتي، ولا يمنحنا سوي الكوابيس المفزعة.

ما هذا المخلوق الماشي علي قدمين؟

يغضب حين تتبدل قهوته، ولا يغضب حين تطأه النعال.

ما هذه الراية المستوردة الخافقة في سمائنا؟

راياتنا سود حمر خضر نعرفها منذ أن كنا أجنّة وتعرفنا.

ما هذا القمر العنيد؟

لا يملّ من البزوغ في الليالي المظلمة علي الرغم من لا أحداً يرمقه بنظرة.

شعب يُباد!

دُعي أدباء وفنانون ومثقفون إلي اجتماع لنصرة شعب يُباد علي مهل وعلي عجل وبتشف.

لم يحضر القصاص الاجتماع لأنه حشا معدته وأمعاءه بطعام دسم أفقده قدراته علي الكلام، وجعله كتلة من اللحم المتهدل..

ولم يحضر الروائي الاجتماع لأنه منهمك في كتابة رواية من سبعمائة صفحة من القطع الكبير، وخصص سبعة أيام للانتهاء من كتابتها..

ولم يحضر الشاعر التقليدي الاجتماع لأنه غسل ثيابه، وهي منشورة علي حبال الغسيل، ولم تستطع الشمس تجفيفها في الوقت المناسب..

ولم يحضر الشاعر الحديث الاجتماع لأنه كان يساعد زوجته في تكنيس البيت ومطاردة العناكب وبيوتها..

ولم يحضر المخرج السينمائي الاجتماع لأنه كان يشاهد فيلماً أجنبياً للمرة الألف بغية السطو عليه بإبداع ودونما تحريف..

ولم يحضر الناقد الأدبي الاجتماع لأنه ملتزم بريجيم صحي قاس، وكل اجتماع يغريه بأن يأكل بغير توقف، ولكنه وعد بالوقوف دقيقة حداداً علي أرواح الشهداء..

ولم يحضر المذيع التلفزيوني الاجتماع لأنه لا يستطيع مغادرة بيته بعد أن أضاع مشطه، ويخشي أن تراه المعجبات مشعث الشعر..

ولم يحضر الفنان التشكيلي الاجتماع لأنه يكرس قواه لطلاء حيطان بيته، وتحسين أحوال البيت هو خطوة أولي في الطريق الموصل إلي تحسين أحوال الكون..

ولم تحضر المممثلة السينمائية الاجتماع لأنها مسافرة إلي الخارج لإجراء سلسلة من العمليات التجميلية الإصلاحية..

ولم يحضر الأستاذ الجامعي الاجتماع لأنه كان يطوف علي أصدقائه باحثاً عمن يوافق علي إقراضه ما يكفل له ألا يطرد من البيت الذي يسكنه..

ولم يحضر الكاتب المسرحي الاجتماع لأنه كان غارقاً في مناقشة ممثلة مسرحية حول دور الفن والفنانات

في النهار والليل..
ولم يحضر المؤلف الموسيقي الاجتماع لأنه أقسم ألا ينهض عن سجادة الصلاة إلا بعد أن يعلم أن فلسطين تحررت.
ولم تحضر الراقصة الاجتماع لأنها تتدرب علي رقصة جديدة ستكون المساهمة العربية في الحضارة الإنسانية المعاصرة..
ولم يحضر المغني الاجتماع لأنه مصاب بزكام حوّل صوته حشرجة ونعيقاً..
وتمكن المصور الصحافي من حضور الاجتماع، فلم تصور كاميرته سوي قاعة خاوية ومقاعد فارغة.

أين كنت؟

أين كنت أيها الكاتب عندما كان عرب فلسطين يُقتلون؟
كنت آكل علي مضض دجاجة سمينة مشوية، وأغمس كل لقمة في ثوم مسحوق، ولم أختتم طعامي بأية حلويات تعبيراً عن حزني الشديد وشجبي لما يحدث.
أين كنت أيها المواطن عندما كانت الدبابات الإسرائيلية تجتاح المدن الفلسطينية؟
كنت أركض محاولاً اللحاق بالباص الذي يوصلني إلي الحي الذي أسكن فيه، ومن المؤسف أن الباص كان أسرع مني.
أين كنت أيها التاجر عندما كان الرصاص الإسرائيلي يطلق علي رؤوس الأطفال الفلسطينيين؟
كنت أقارن بين أرباحي من بيع السلع المحلية الصنع وبين أرباحي من بيع السلع المستوردة، وقررت متابعة الإستيراد حتي أنهك العمال الأجانب , وأريح عمال بلدي.
أين كنت أيها الجندي عندما كانت الأرض الفلسطينية تُحتل بعد الاحتلال؟
كنت أشرب شاياً ثقيلاً بلا سكر بعد أن اطلعت علي مقال طبي يحذر من إضرار السكر، وكانت بندقيتي قريبة من يدي بغير ذخيرة.
أين كنت أيها الوزير عندما كانت آلاف البيوت الفلسطينية تُهدم؟
كنت أدرس مع مهندس الديكور اقتراحاته لتطوير مكاتبي، وقد أوعزت إليه بالإكثار من استخدام اللون الأسود حداداً علي أرواح الضحايا.
أين كنت أيها الصحافي عندما كان خير رجال فلسطين يُغتالون؟
كنت محتاراً بين صورتين لزعيم واحد، ولم أدر أيهما أنجح في تجسيد تأثر الزعيم بما يجري.
أين كنت أيها المعلم عندما كانت القري الفلسطينية تتحول أنقاضاً؟
كنت جالساً كالتمثال أنصت لنصائح زوجتي بأن أهجر مهنة التعليم، وأشتغل بائعاً للفلافل أو حفار قبور.
أين كنت أيها الرسام عندما كان الفلسطيني يُهان ويُذل؟
كنت أتفاوض مع أحد الأثرياء علي أن أرسمه بالألوان وهو يدخن النرجيلة مصغياً إلي موسيقي شوبان.
أين كنت أيها المفكر عندما كان الفلسطيني يُجوّع؟

كنت أطالب بالحرية للجميع، وأختبئ خشية أن يغتالني المحرومون منها.
أين كنت أيها الشيخ عندما كان الفلسطيني يُقتل؟
كنت أبتهل إلي الله حتي يجعل الفلسطيني غير مرئي وينجو من القتل.
أين كنت أيها الجنرال عندما كان شبان فلسطين يفجرون أنفسهم؟
كنت أحارب بغير هوادة للحفاظ علي منصبي وحصتي من كل مشروع تجاري جديد.

وطن آخر موضة

قال السائح العربي الذائع الصيت ابن بطوطة: رغبت في زيارة بلد عربي يُحكي كثيراً عن تقدمه وتطوره وحفاظه علي أصالته العربية، وقصدته بلا إبطاء في طائرة ركاب تابعة له، فإذا كل المضيفات أجنبيات من دون لطف وتهذيب يشفعان لقبحهن الوقح، وأخبرتني واحدة منهن أنه لا توجد أية مضيفة تعرف اللغة العربية، وكان صوتها يكشف عن إيمانها بأن كل متكلم باللغة العربية متخلف يستحسن الابتعاد عنه، فاحمر وجهي، وقلت لنفسي: سيأتي يوم قريب يصبح فيه العربي مضطراً إلي الإعتذار لكونه يتكلم اللغة العربية.
وما إن وطأت قدماي أرض المطار حتي رأيت أناساً ينتمون إلي كل الجنسيات، ولم أر واحداً من أهل البلد الأصليين، وحكي لي صديق مقيم بذلك البلد أن رجل دين دعا المسلمين إلي صلاة استسقاء في أحد المساجد طلباً للمطر، وتمت الصلاة، ولكن الأمطار انهمرت فقط في الهند وباكستان لأن معظم المصلين كانوا من الهنود والباكستانيين، ولما تجولت في الشوارع، تأكدت من أن الأمطار هطلت أيضاً في الفليبين، وأخبرني رجل بريطاني بصوت متذمر أنه يحتاج هنا إلي اللغة الإنكليزية أكثر مما يحتاج إليها في لندن.
وأردت التعرف إلي بعض أدباء البلد، فقيل لي إن أكبر شاعر مقيم بلاس فيغاس، وأهم صحفي يزور البلد مرة كل سنتين، وأفضل باحث يدرس في جامعة غربية ويعاني ويلات الرسوب، وأخطر كاتب موجود في اليابان للحصول علي توكيل لسيارات تويوتا، وأحسن روائي هرب من زوجته، واختبأ في مكان مجهول، فقلت لنفسي: ليس لي سوي الجرائد.
واشتريت جريدة من جرائد البلد، ففوجئت بها كثيرة الصفحات، ثقيلة الوزن إلي حد أن عجوزاً مثلي يحتاج إلي استئجار شاب مفتول العضلات لحملها، وبادرت إلي الإطلاع عليها بفضول، فرأيت فيها القليل من الأخبار والتعليقات التائهة وسط أدغال من الإعلانات عن سلع من مختلف بلدان العالم، ولونشرت الجريدة إعلاناً عن بيع نساء وأطفال بالتقسيط المريح لما استغربت، وازداد إصراري علي مقابلة واحد من أهل البلد، فقيل لي إن الرجال يقضون فصل الصيف في بانكوك والنساء في لندن والأطفال في باريس، فغادرت البلد شديد الإعجاب بأسلوبه الفريد في الحفاظ علي أصالته العربية .

لم يســكــتــوا دهراً

قال مستشارو الرئيس للرئيس إن الناس يتذمرون من حرية زائدة ترهقهم، ولا يحتاجون إليها، ومن المستحسن المبادرة إلي فعل ما يزيل تذمرهم..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن الصحافة في تطور لا يتوقف، ولكنها لا تلبي رغبات الناس الذين يريدون أن يروا صور المسؤولين وأبنائهم وسياراتهم وقصورهم كبيرة ملونة في كل صفحة من صفحات الجرائد..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن الحذر واليقظة مطلوبان، وينبغي له أن ينام مفتوح العينين لأن ثمة اثنين من مواطنيه مجهولي الهوية لم يصوتا لصالحه في الانتخابات..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن المواطنين أجمعين يتمتعون برفاه مادي يجعلهم محتارين بين شراء سيارة لامبرغيني وبين شراء سيارة بورش..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن أكوام القمامة الرابضة في كل شارع هي دليل علي أن الشعب يأكل بكثرة وبشهية..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن الناس أنهكهم التفكير، ويطالبون الحكومة بأن تفكر بدلاً منهم في كل القضايا ما عدا قضايا الزواج والطلاق..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن سجون البلد الكثيرة باتت منافسة لأرقي الفنادق، ومن يدخلها يأبي الخروج منها، وتضطر السلطات إلي مسايرته والخضوع لارادته..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن التعليم يتقدم بسرعة مذهلة، ولا يوجد في البلد أستاذ جامعي لا يجيد كتابة اسمه..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن القدرات القتالية للجيش تؤهله للتشاجر مع أقوي جيش في العالم والتغلب عليه..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن الثقافة بخير ولا تشكو من أية علة خاصة وأن وزير الثقافة هو طبيب، ومن أحسن الأطباء في العالم..

وقال مستشارو الرئيس إن المتحدثين عن انتشار الفساد هم مجرد أناس يحسدون الذين رزقهم الله بلا حساب متناسين أن من جدّ وجد..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن النظام في البلد سائد ويحظي بالاحترام حتي أن القطط لا تستطيع المواء إلا بعد استئذان وموافقة مسبقة..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إنه يحكم شعباً تغار منه كل شعوب الدنيا، وتحلم أن يحكمها حاكم مثله، ولا تظفر بما تحلم به..

وقال مستشارو الرئيس للرئيس إن الناس يعارضون استيراد الديمقراطية الأجنبية، ويفضلون تصدير ديمقراطيتهم المحلية حتي تنعم شعوب الأرض ببعض ما ينعمون به..

ما عندكم ينفد

استغل الشاعر المغربي عبد الكريم الطبال حلول اليوم العالمي للشعر لإثبات أن القلب البشري فندق يحتفي بكل نزلائه سواء أكانوا قتلة أم مقتولين، وخاطب زملاءه الشـــــــــعراء العرب في كلمة مكتوبة باللغة العربية قال في ختامها: أيها الشعراء: لنكسر تماثيل الحرب أينما كانت لنغرس علي أطلالها القياثر والنايات متوهماً أنهم محاربون ينسلون من بطون أمهاتهم بالثياب العسكرية المموهة مدججين بالأسلحة، ومتوهماً أيضاً أن العرب قوة عظمي عاتية تتسكع ضجرة علي سطح الكرة الأرضية، وتحتل ما يطيب لها من عواصم العالم، وتخرج من حرب لتدخل إلي حرب.
ويحسن بالشاعر أن يتصف بخيال خلاق شرط ألا يستثمره في تلفيق ما هو غير موجود، والتعامل معه علي أنه موجود، فالعرب منذ ثلاثين سنة أمة لا في العير ولا في النفير، فأراضيها تُسلب، وثرواتها تُنهب، واستقلالها يُلغي، وأبناؤها يُقتلون صغاراً وكباراً ونساء وشيوخاً، فتكتفي بالأنين الخافت المتضرع علي أبواب ما يشبه الجمعيات الخيرية الدولية، وصار أتفه صحافي أجنبي يصول ويجول ويزأر مقترحاً علي الحاكم العربي ما يفعله وما لايفعله. أما الجيوش العربية، فتحوّلت من حارس للوطن إلي حارس شخصي لحاكم الوطن، وتحولّ الوطن نفسه أرضاً صلبة يُمشي فوقها أحياناً ويُدفن الموتي دائماً في جوفها.
ومن الضروري للشاعر المغربي أن يشتري منظاراً مقرّباً لاستخدامه في النظر إلي ما حوله وإلي ما فوقه وإلي ما تحته حتي يتأكد من أن لا أحد في البلاد العربية يحارب أو ينوي أن يحارب، ولا أحد يعشق الحرب ويقيم لها التماثيل، ولا أحد بقادر علي تحطيم تماثيل الحرب لأنها غير موجودة، ولا وجود لها إلا في مخيلته، ولكن القتلة وحدهم هم الذين سيرحبون بحرارة بأن ينادي المقتولون بالجنوح للسلم ونبذ الحرب، وسارقو الأرض عن طريق القوة المسلحة سيسرهم أن يعلن أصحاب الأرض الأصليون أنهم مسالمون وكارهون للعنف، سيستردون أرضهم بالكلام البليغ. أما العرب الملتصقون بأوطانهم لحماً ودماً، فهم واثقون بأن الببغاء المولود علي الأرض العربية ليس في وسعه إلا ازدراء ما تفعله الببغاوات الأخري التي تكتفي بترديد ما سمعته، ويستحمقها ويستضعف عقولها.

المغني

الشهرة في البلدان المتخلفة متخلفة أيضاً وشبيهة بالغبار بينما الشهرة في البلدان المتقدمة تجلب للمحظوظ الذي اشتهر بالمال الوفير، فقبل أشهر كان البريطاني ويل يونغ مجرد شاب مجهول ومغمور، ولكنه ما إن شارك في مسابقة تلفزيونية لهواة الغناء وفاز فيها بالمركز الأول حتي بات مشهوراً، وبيع من أول ألبوم غنائي له طرحه في الأسواق البريطانية أكثر من مليون نسخة في الأسبوع الأول.
وويل يونغ متواضع، خجول، يبتسم وجهه وعيناه في آن واحد، وقد برهن أنه جدير بالثقة وكاره للغش والخداع عندما سارع إلي الإعلان أنه شاذ جنسياً، وتبين لكل المعجبين والمعجبات به أنه ليس واحداً ممن

يغمي عليهم لحظة يلمحون امرأة جميلة، وردوا علي تلك البادرة الطيبة من مغنيهم المفضل بأحسن منها، وأكدوا في المقابلات التلفزيونية أنهم معجبون بصوته، ولا يكترثون لنصفه الآخر، وسيظلون معجبين بصوته.

وهذا الموقف الذي اتخذه المغني الجديد جدير بالتنويه لأن ثمة مشهورين آخرين خدعوا جمهورهم بلؤم، فعندما كان الممثل الأمريكي روك هدسون حياً كانت أفلامه تحظي بالرواج والإعجاب لكونه تجسيداً للوسامة والرجولة، وقبل وفاته بأشهر اتضح أنه مصاب بالإيدز بسبب شذوذه الجنسي، فافترست الخيبة المرّة عشاق أفلامه الذين اكتشفوا أن هوليوود سخرت من عقولهم طوال عقود من الزمن، وقدمت لهم المواء علي أنه الزئير المخيف.

ومن حسن حظ المواطن العربي أنه بعيد عن مثل هذه الخيبات في المجالات الفنية، فكل مطربيه فحول يطاردون النساء في البر والبحر والجو، ولكنه يعاني خيبات أبشع وأقسي في مجالات أخري، فما ان يظهر زعيم سياسي جديد حتي يؤيده ويعلق صوره علي جدران غرفة نومه بوصفه القادر علي تغيير الحاضر والمستقبل، ولكن سرعان ما يتضح له أنه وحش وجلاد وقاتل، وما إن يحب أديباً معادياً لكل سلطة حتي يتبين له أنه مجرد حالم بالدنو من عتبات أي مسؤول سواء أكان كبيراً أم صغيراً، وما إن يحترم صحافياً ويعتبره صوته الصادق حتي يتضح له أنه خل متنكر في شكل نبيذ، ومعظم المترنحين في الشوارع العربية ليسوا سكاري، ولكنهم تجرعوا الخل في المجالات الاجتماعية والإعلامية والثقافية والسياسية.

أدركـــته ركلة الأدب

احتار أحد الأدباء في إيجاد الوسيلة التي تجعل الناس يهتمون به وبما يكتبه..

كتب كلاماً مرتعشاً عن الحب، لا هو بالنثر ولا هو بالشعر، يغري قارئه بالصياح: ليتني كنت أمياً! ..

وكتب القصص القصيرة التي وصفها قراؤه بأنها تسئم وتسقم، وعسيرة كلحظة الموت..

ونظم الشعر، فبادر أبو نواس إلي الانسحاب من حزب الشعر نافياً أية صلة به، وابتعد عن حياة اللهو والمجون، وأطال لحيته، وبات لا يفارق المساجد، وأعلن الناطق الرسمي باسم الشعر أن الشعر نفسه أصيب في حادث مؤسف، وانتقل إلي رحمة الله تعالي..

وكتب الرواية، فهيمن علي الحياة الثقافية ما ملخصه أن الرواية هي ديوان العرب للثرثرة السمجة..

وكتب مسرحيات جادة متجهمة عن الوجود والعدم وعبث الحياة، ولكن الناس أقبلوا عليها بوصفها مسرحيات فكاهية..

وكتب مقالات قصيرة ساخرة مرحة، فإذا سخريتها هي الدب الذي يعتقد أنه غزال، وإذا مرحها دخان وغبار يزهقان الأنفاس..

وكتب النقد الأدبي في الصفحات الثقافية في الجرائد العربية، وكلما تمادي في انتقاد كتاب والاستخفاف به سارع القراء إلي شرائه، وأعجبوا به، وحفظوه عن ظهر قلب..

وأجري مع الصحافة مقابلات طالب فيها بأن تعم الحرية وينتشر التحرر، فإذا النساء يرتدين الملاءات فوق

الملاءات، ويضربن عن الحبل والولادة حتي ساد الحب العذري بين الزوجات والأزواج، وإذا الرجال يصيدون الغربان، ويضعونها في الأقفاص بغية التمتع بأصواتها الملأي بالشجن..

وكتب ضد الحكومات، فإذا ما كتبه يدفع الناس إلي كتابة الرسائل الغرامية الحارة إلي حكوماتهم..

وكتب الكثير من المديح والهجاء، ولكن استياء الممدوح فاق استياء المهجو..

ولما أخفق ذلك الأديب في كل مجال دبّ إليه، خطر له أن ينتحر، وأعجب بفكرته، ووجدها أفضل وسيلة لإثارة الاهتمام به، وبادر إلي تنفيذها، ومات في ريعان الكهولة، وسار في جنازته مشيعون كثيرو العدد، ففرح، وآمن أنه محبوب، ولكن ما إن وضعت جثته في حفرة القبر، وأهيل فوقها التراب حتي فوجئ بالمشيعين يطلقون الزغاريد المرحة، فاغتاظ وأسف، ولكنه سرعان ما ابتسم إذ تذكر أن كتبه لا تزال تباع في الأسواق وتثأر من قرائها.

من حفرة إلي قمة

تناسي الجائعون معدهم الفارغة العاوية، وأمروها بأن تخرس فوراً احتراماً لمؤتمر القمة العربي المزمع عقده أواخر الشهر الحالي في بيروت..

وتابع الرجال إهمالهم لزوجاتهم وزوجات الآخرين بحجة أن قواهم المرئية وغير المرئية مكرسة لمؤتمر القمة وأنبائه فقط..

ووبخ قضاة المحاكم لصوصاً مثلوا أمامهم، واستغربوا إقدامهم علي السرقة ونسيانهم أن الجهود والطاقات كافة يجب أن تحشد وتتآزر لإنجاح مؤتمر القمة..

وكفّ العشاق عن انتظار حبيباتهم، وعاشوا كمدمني مخدرات بلا مخدرات، ولم يعد في حياتهم سوي انتظار مؤتمر القمة ومقرراته العلنية والسرية..

وطلبت قطة من قط الزواج بها بغير مماطلة، فقال لها القط بصوت فظ: لن أتزوج بك إلا بعد انعقاد مؤتمر القمة والاطلاع علي قراراته .

وازدري العاطلون عن العمل كل ما علي سطح الأرض من أعمال، واختصوا بالبحث عن آخر الأخبار عن مؤتمر القمة..

وامتنعت الديكة عن الصياح كل فجر معلنة أنها لن تعاود الصياح إلا في صباح اليوم الذي سيعقد فيه مؤتمر القمة..

وسدّ التلامذة الصغار آذانهم بأصابع أيديهم رافضين الإنصات لمعلمهم ودروسه المضجرة، فالعلم الصحيح يبدأ من مؤتمر القمة..

ونظرت النساء إلي المرايا في غرف نومهن، فلم يبصرن فيها سوي زعماء عرب أجلاء سيحضرون مؤتمر القمة..

وخاطب طارق بن زياد المواطنين العرب الهلعين الجالسين القرفصاء، وقال لهم محذراً: مؤتمرات القمة من ورائكم، ومؤتمرات القمة من أمامكم، ولا مفر .

ووقف المغني الذائع الصيت أمام جمهور غفير، وفتح فمه، وهمّ بالغناء، ولكن فمه تجمد مفتوحاً من دون صوت، ولن يتاح لجمهوره سماع صوته إلا حين ينعقد مؤتمر القمة..
أما الأرض الفلسطينية المحتلة المجللة بالدم، والتي تُهدم بيوتها ويُقتل رجالها ونساؤها وأطفالها يومياً، فهي الوحيدة التي لم تكترث لمؤتمر القمة، فالخطب المنمقة ليست سلاحاً ولا طعاماً ولا دواء، والقرارات مجرد كلمات مطبوعة لا تخيف، وليست أرضاً مسلوبة تعود إلي أصحابها، والتبختر في المطارات والقاعات المغطي أرضها بالسجاد الأحمر ليس كمشي المترنح بين البنادق والدبابات المسعورة، ولكن الأرض الفلسطينية اضطرت إلي الإعجاب بذكاء منظمي مؤتمر القمة لكونهم اختاروا له التوقيت المناسب إذ سينعقد في الربيع، وقبل أن يأتي إلي بيروت صيفها الحار اللزج.

قبر خاو

كان الجنرال أرييل شارون رجلاً ذا رئتين ومعدة وأمعاء غليظة وأمعاء دقيقة وكبد وشرايين ملأي بالدم الأحمر، ولا يختلف عن غيره من الرجال إلا بكونه جنرالاً في جيش محارب في بلاد ليست بلاده، وكان الجنرال كثير الضجر من مهنته الخالية من الإثارة، ويحلم بأن يعمل يوماً في مزرعة لتربية البقر والغنم أو في مستشفي للمعوقين والمسنين، وكان الجنرال صارماً كثير الاكتئاب، لا يبتهج إلا حين يتخيل عصفوراً صغيراً يحاول الطيران ويخفق، ولا يبتهج إلا حين يتخيل جنوده المطيعين لأوامره يحتلون القري والمدن متنافسين علي هدمها وقتل سكانها، ولا يبتهج إلا حين يتخيل أنه يزود جنوده بأسلحة قادرة علي إبادة مئات الألوف في ثوان، فلا يحاولون استخدامها حتي لا يحرموا قتل أعدائهم ببطء وتشف.
وقد ابتهج الجنرال في أحد الأيام ابتهاجاً مختلفاً حين تنبه إلي أن شعراً جديداً أسود بدأ ينبت في رأسه ويحل محل الشعر القليل الأشيب، وتباهي به دليلاً علي الرجولة وعودة الشباب، وتزايد نمو شعر جسمه مغطياً الجلد بطبقة كثيفة خشنة، وتبدل شكل وجهه تدريجياً، وحاول في إحدي الليالي أن يستسلم للنوم، فأخفق، وأحس بقوة غامضة تجتاح كل جسده، فقفز من سريره، وتمطي أمام المرآة وهو ينظر إليها ملياً، فرأي أنه قد صار ضبعاً ذا مهابة مغطي بشعر كثيف، واستحالت أظفار يديه مخالب وأسنانه وأضراسه أنياباً، فاستمتع بتبدله، ودهمه جوع لا يقاوم، فانقض علي عنق زوجته التي كانت نائمة، وقتلها قبل أن تصحو، ولكنه لم يستسغ لحمها المترهل القاسي، فتركها مشمئزاً، ووثب علي ابنه الرضيع المبتسم إبان نومه، وأعجب بلحمه الطازج الغض.
وكان أحد حراس الجنرال واقفاً خارج غرفة النوم مشدود القامة وإصبعه علي زناد بندقيته تأهباً لأي حدث طارئ، فبوغت بضبع يخرج من الغرفة ملطخاً بالدماء، فبادر إلي إطلاق النار عليه، وأرداه قتيلاً، فتراكض بقية الحراس مضطربين متصايحين، وعثروا علي بقايا الزوجة وابنها، ولم يعثروا علي الجنرال، فساد اعتقاد بأن الضبع أكله بأكمله، ولم يترك منه ما يحتاج إلي قبر.

سنهرب ببسالة!

كثيرون من العرب يهاجرون حالياً بعيداً عن البلاد التي ولدوا فيها، وكل واحد منهم له مسوغاته وأسبابه وحوافزه.

إذا كان المهاجر من هواة قراءة الأدب، فهو يريد الهجرة إلي بلاد غير ناطقة بالعربية هرباً من مقابلات بعض الأدباء المنشورة بإسهال في الصحافة، وهي مقابلات تتصف بطولها وبدانتها، وتوشك كلماتها أن تكون أكثر عدداً من الكلمات التي سبق لهؤلاء الأدباء أن كتبوها في قصصهم ورواياتهم وأشعارهم ودراساتهم، وكل مقابلة مخصصة لتبيان جانب من الجوانب الخفية لعبقرية واحد من أولئك الأدباء، ولإقناع قرائه بأنهم ليسوا مغبونين في صفقة الأدب التي كانت في غابر الأزمنة تسمي بحرفة الأدب، ويؤسف لنهاية من تدركه أو يدركها.

وإذا كان المهاجر ثرثاراً ومياّلاً للشكوي والتذمر، فهو يرغب في الهجرة إلي بلاد أخري تعادي الأفواه المغلقة، ولا تبتر الألسنة، ولا تبني السدود في داخل الأفواه والرؤوس.

وإذا كان الراغب في الهجرة سميناً ذا شحم ولحم، فهو ينشد بلاداً تتيح له في شهور أن يصير واحداً من هؤلاء الذين يُسمع كلامهم ولا تُري أجسامهم.

وإذا كان المهاجر فقيراً، فهو يهاجر من بلاده خاوي الجيوب ليعود إليها في ما بعد بثياب بلا جيوب، ولا تحتاج إليها.

وإذا كان المهاجر عاشقاً، فهو يطلب الهجرة هرباً من إهانات أهل حبيبته وخوفاً من رسوب مؤكد في امتحانهم العسير الذي يبدأ عادة بتحقيق صارم حول أرصدته في البنوك وحسبه ونسبه.

وإذا كان المهاجر من الذين يطلبون الحرية، فهو يهاجر ليمارس حريته ثم يعود إلي وطنه مسجي في نعش، فتقول الصحافة عنه إنه عاد مطأطئ الرأس مستجدياً الغفران، ويعجز عن الردّ عليها.

وإذا كان المهاجر واحداً من الذين اعتادوا منذ ولادتهم كظم غيظهم، فهو يهاجر ليتيح لغيظه أن ينفجر ويهدر ويخور.

وإذا كان المهاجر معتزاً بعقله وقلبه، ويحرص عليهما، فهو يهاجر حفاظاً علي سلامة ما تبقي منهما.

أما إذا كان المهاجر يحتضر ويملك ثمن بطاقة السفر، فهو يهاجر بسرعة وبلا تردد ليموت في بلاد لا يُهان فيها يومياً، ولا يُقسر علي عبادة من يهينه.

ربيع الفضوليين

سئل الليل: ألم تسأم ارتداء الثياب السود؟ .

فأجاب الليل: لو ارتديت ثياباً بيضاً لاختفي بهاء النجوم ولاضطر الشعراء إلي تمزيق الكثير من قصائدهم .

وسئل الكرسي: ماذا تتمني في هذه السنة؟ .

فأجاب الكرسي: أتمني أن أتحوّل عصياً تضرب الجالسين عليّ بغير استئذان .
وسئل الغراب: ألا تخجل من خوف لا يفارقك، ويسميه أنصارك حذراً؟ .
فأجاب الغراب: خوف يحفظ الحياة خير من شجاعة تجلب الهلاك .
وسئل المستنقع: لماذا لا تطرد الضفادع وتمنعها من البقاء في مائك؟ .
فأجاب المستنقع: كل مستنقع بلا ضفادع هو مقبرة بلا موتي وحقل بلا شجر .
وسئل السيف: هل صحيح أن السيوف لها أيضاً أيام سود وأيام بيض؟ .
فأجاب السيف: كل سيف له يومه الأسود حين يرغمه الحمقي علي تقشير البصل وتقطيع البطاطا .
وسئل السقف: أأنت مبصر أم أعمي؟ .
فأجاب السقف: كنت في قديم الزمان مبصراً، ولكني اخترت العمي اشمئزازاً مما رأيت .
وسئلت النجمة: لماذا كنت تناقشين القمر بغضب وارتجاف؟ .
فأجابت النجمة: كنت أحاول إقناعه بفوائد هجرته إلي كواكب أخري، فأبي الاقتناع، وسخر مني .
وسئل الضبع: لماذا تأكل الجيف؟ .
فأجاب الضبع: أتسألون عن جيف الحيوان أم عن جيف الإنسان؟ .
وسئل الصقر: لماذا تحلق عالياً؟ .
فأجاب الصقر: حتي لا أسمع ثرثرة عن الحرية ومحاسنها، تصدع الرأس وتنتف الريش .
وسئلت البقرة: ماذا تقولين حين تخورين؟ .
فأجاب البقرة: أطالب هيئة الأمم المتحدة بأن تعترف بدولة الأبقار، وتسمح لها بالانضمام إليها حتي يتاح للجميع خدمة الديمقراطية .
وسـئلت السـيارة: ما رأيك في الشائعات الرائجة حول تشابه خفي بينك وبين الناس؟ .
فأجابت السيارة: أستطيع التأكيد علي أنه لا وجود لأي تشابه، فأنا أسير إلي أمام وإلي وراء بينما الناس يسيرون إلي وراء فقط متوهمين أنهم يسيرون إلي أمام .

صراخ بغير صوت

وقف أحد الحجاج العرب علي جبل الرحمة بعرفة، ورنا إلي السماء متضرعاً إلي الله بصوت خاشع متهدج نابع من قلب يئن تحت جبال من الحزن..
تضرع إلي الله أن يطيل أعمار الحكام العرب، فهم زينة الحياة الدنيا والربيع والخريف والصيف والشتاء، واختفاؤهم من الحياة يعني اختفاء العدل والحرية والزهد والتواضع الجم واحتقار المال..
تضرع إلي الله أن يلهم الجيش الأمريكي فيرسل طائراته وصواريخه إلي سماء الأرض العربية لتتخلص المدن والقري من فوضي طرقها وقبح أبنيتها، ولتتخلص الناس من حياة دكناء ليس فيها ما يسر ويغري بالبقاء..
وتضرع إلي الله أن تكف الشمس عن الشروق كل صباح، فالظلمة تستر والنور يفضح..

وتضرع إلي الله أن يزداد عدد السجون حتي يتاح لكل معوز الحصول علي قوته اليومي من غير جهد يحول الصخور غباراً..

وتضرع إلي الله مطالباً بأن تستمر الصحافة العربية في عدائها المر للنفاق والكذب..

وتضرع إلي الله أن تصبح صفحات الكتب بيضاً من غير سوء منكر يسمي بالكلمات..

وتضرع إلي الله أن تختفي الفواكه واللحوم من الأسواق حتي لا تري العيون ما يجلب الهم والغم والحسرة..

وتضرع إلي الله أن يتزايد الحر في الفصول الأربعة حتي لا يضطر أي واحد إلي ارتداء الثياب وشرائها، وتتحقق المساواة في الشكل الخارجي بين الشحاذ والمليونير..

وتضرع إلي الله أن تسير الأنهار إلي الوراء مقلدة بعض الناس، فلا مسوغ للاختلاف بينهما ما داما يعيشان علي أرض واحدة..

وتضرع إلي الله أن يتخلي التجار في الميادين السياسية عن مقتهم للمال، ويوافقون علي بيع أوطانهم بأبخس الأسعار، ويصبح مالكها هو المسؤول الوحيد عن العناية بعقاراته البشرية والحجرية..

وتضرع إلي الله أن تتابع الحرية انتصاراتها، وتنتقل من حرية التثاؤب إلي حرية التمطي إلي حرية التشاجر مع الزوجات..

وتضرع إلي الله أن يرحم عباده، فتختطف أرواحهم وهم يشاهدون المسلسلات التلفزيونية المسلية.

وكان الحاج العربي شديد الإيمان بأن تضرعاته ستحظي بمنصت لها لا يمهل ولا يهمل.

الحامدون بغير توقف

لا يحق لنا ان نتوقف لحظة واحدة عن حمد الله العلي القدير، فليس لدينا اي ليل لا ينتهي بفجر يوقظ مكبرات الصوت، وليس لدينا اي شمس لا تغرب كل مساء، وليس لدينا قمر يبزغ من دون ان يسعل منهباً نساءنا المحتشمات حتي يسارعن الي التلاحم بالملاءات، وليس لدينا اي حاكم يتمادي في جوره علي شعبه حتي يغريه بالاقدام علي الانتحار الجماعي، وليس لدينا اي شعب يعادي حاكمه ولا يغمره بحب يتحول اكفانا من افخر حرير، وليس لدينا اي طريق لا يوصل الي طرق اكثر رحابة، وليس لدينا اي ابنية تجرؤ علي الانهيار والسقوط وقتما يحلو لها، وليس لدينا اي خراف لا ترحب بان تؤكل نيئة ومشوية ومقلية ومسلوقة، ولا غاية لها الا ارضاء اكلها، وليس لدينا اي بقرة تتباهي بان خوارها غناء وطرب صاف يستحق التصفيق الشديد، وليس لدينا اي كلب ينبح من دون ان يحذرنا من عدو يتسلل خلسة.

لا يحق لنا ان نتوقف لحظة واحدة عن حمد الله خالق الارض والمساء، فليس لدينا ما يصلح للشكوي منه، وليس لدينا ما نطالب بتغييره سوي لون العشب المضجر، وليس لدينا ما نرغب في اغتياله ذبحاً وشنقاً وسحلاً،

لا يحق لنا ان نتوقف لحظة واحدة عن حمد الله القادر القدير، فأفواهنا الباسلة تتفنن في طحن الطعام وصنع الكلام المضمخ بالتوابل الحارة، وعيوننا مفتوحة تمنع الحيطان من نطحنا، وأيدينا المصفقة للخطب

السياسية العصماء تلمس وجه البحر، فيتبخر ماؤه خاشعاً تاركاً لنا اسماكه صيداً بغير جهد وهدايا مجانية من كريم الي كرماء. لا يحق لنا ان نتوقف لحظة واحدة عن حمد الله القاهر الغفار، فزوجاتنا مطيعات مؤدبات ومهذبات وملكات جمال خرساوات، وأبناؤنا نوابغ يزحفون من مجد تليد الي مجد مخلد، وأولو امرنا يصلحون للتصدير الفوري باسعار مخفضة وبالتقسيط المريح، وقبورنا من حجر يهزا بالزلازل والعواصف، وصحافتنا نار تشعل حرائقها في جبال من ورق، وقضاة محاكمنا اطباء مهرة مختصون بتوليد العدالة من بطون الظلم، وادباؤنا ملائكة آن لها ان تطير الي السماء السابعة مبتعدة عن ارض البشر المترنحة تحت الهوان والبؤس.

لا يحق لنا ان نتوقف لحظة واحدة عن حمد الله القوي الجبار المقتدر واهب الحياة وواهب الموت الجميل.

طيران البغل!

تُلغي أحيانا الحدود العربية بين الذكاء والغباوة، ويصبح الذكاء غباوة والغباوة ذكاء.

أذكي عصفور ينسي أنه صاحب جناحين، ويؤكل وهو يدب علي سطح الأرض متمهلا..

أذكي ورد هو الورد المصنوع بإتقان من الورق الملون، ويتفاخر بعمره الطويل هازئاً بالورد الحقيقي ذي العمر القصير..

أذكي عصا تضرب الأصدقاء بحجة أنها تتدرب تأهباً ليوم ضرب الأعداء..

أذكي مطر هو ذاك الذي يهطل بغزارة في فصل الصيف، وينام في الشتاء مؤجلاً ما عليه من أعمال..

أذكي قطة تأكل أولادها، وتنسي أنها أكلتهم، ولا تتوقف عن مناداتهم، وتحزن عندما لا يلبون نداءها..

أذكي خروف هو المتباهي بين الخراف بلحمه السمين من دون أن يعلم أن ما يتباهي به سيكون مسؤولاً عن الإسراع في ذبحه..

أذكي قطار يفرح بالموت الباغت لسائقه معتقداً أنه بات قادراً علي أن يسير ويقف متي يشاء..

أذكي كتاب هو كتاب يؤمن مؤلفه بأن قيمة كتابه تكمن في كثرة عدد صفحاته وثقله في الميزان متجاهلاً أن أصغر زهرة أكثر قيمة من جبال من القمامة..

أذكي مذيع تلفزيوني يرهق نفسه والمشاهدين لاستغلال البرامج التي يقدمها لاستعراض ما يتمتع به من صفات أنثوية، بعضها مادي، وبعضها الآخر معنوي، ولو كان حكيماً لبادر إلي الاستفادة من منجزات الطب الحديث والانضمام إلي كتائب المذيعات..

أذكي لاعب كرة قدم مختص بتسديد أهدافه إلي مرمي فريقه، ويستهجن صفير الجمهور المستنكر، ويتهمه بعدم التحلي بالروح الرياضية..

أذكي طبيب ينصح مرضاه الفقراء بالإكثار من أكل اللحوم والفواكه كأنها مطر يهطل من السماء مجاناً..

أذكي ممثل يقف علي خشبة المسرح ولا موهبة لديه إلا رباطة الجأش والوقاحة والادعاء أنه ممثل..

أذكي أب يحض أبناءه الصغار علي تقبيل الأيدي توقيراً للمسنين، ثم يلومهم لأنهم يقبلون الأقدام عندما صاروا رجالاً..

أذكي ناقد يكتب مقالاً عن كتاب، فإذا مقاله يحتاج إلي تأليف عشرة كتب لتوضيح ما أراد قوله..
أذكي سفينة هي التي يتاح لها أن تختار ربانها، فتختار ربانها أعمي وأصم، وتشكو حظها العاثر يوم تضل في البحار ولا تبلغ شاطئاً أو ترتطم بالصخور وتتحطم.

صراخ بغير صوت

وقف أحد الحجاج العرب علي جبل الرحمة بعرفة، ورنا إلي السماء متضرعاً إلي الله بصوت خاشع متهدج نابع من قلب يئن تحت جبال من الحزن..
تضرع إلي الله أن يطيل أعمار الحكام العرب، فهم زينة الحياة الدنيا والربيع والخريف والصيف والشتاء، واختفاؤهم من الحياة يعني اختفاء العدل والحرية والزهد والتواضع الجم واحتقار المال..
تضرع إلي الله أن يلهم الجيش الأمريكي فيرسل طائراته وصواريخه إلي سماء الأرض العربية لتخلص المدن والقري من فوضي طرقها وقبح أبنيتها، ولتخلص الناس من حياة دكناء ليس فيها ما يسر ويغري بالبقاء..
وتضرع إلي الله أن تكف الشمس عن الشروق كل صباح، فالظلمة تستر والنور يفضح..
وتضرع إلي الله أن يزداد عدد السجون حتي يتاح لكل معوز الحصول علي قوته اليومي من غير جهد يحول الصخور غباراً..
وتضرع إلي الله مطالباً بأن تستمر الصحافة العربية في عدائها المر للنفاق والكذب..
وتضرع إلي الله أن تصبح صفحات الكتب بيضاً من غير سوء منكر يسمي بالكلمات..
وتضرع إلي الله أن تختفي الفواكه واللحوم من الأسواق حتي لا تري العيون ما يجلب الهم والغم والحسرة..
وتضرع إلي الله أن يتزايد الحر في الفصول الأربعة حتي لا يضطر أي واحد إلي ارتداء الثياب وشرائها، وتتحقق المساواة في الشكل الخارجي بين الشحاذ والمليونير..
وتضرع إلي الله أن تسير الأنهار إلي الوراء مقلدة بعض الناس، فلا مسوغ للاختلاف بينهما ما داما يعيشان علي أرض واحدة..
وتضرع إلي الله أن يتخلي التجار في الميادين السياسية عن مقتهم للمال، ويوافقون علي بيع أوطانهم بأبخس الأسعار، ويصبح مالكها هو المسؤول الوحيد عن العناية بعقاراته البشرية والحجرية..
وتضرع إلي الله أن تتابع الحرية انتصاراتها، وتنتقل من حرية التثاؤب إلي حرية التمطي إلي حرية التشاجر مع الزوجات..
وتضرع إلي الله أن يرحم عباده، فتختطف أرواحهم وهم يشاهدون المسلسلات التلفزيونية المسلية.
وكان الحاج العربي شديد الإيمان بأن تضرعاته ستحظي بمنصت لها لا يمهل ولا يهمل.

تخيلوا يا أيها السادة

كان نائباً كثير الكلام في كل جلسة يعقدها البرلمان، ولكنه كان في الوقت نفسه قليل الكلام في بيته، وقد سخرت زوجته من خطبه البرلمانية المضجرة، واقترحت عليه أن يحاول التكلم عما هو غير متوقع، ففكر في اقتراحها، وأعجب به، وأعلن أنه سيبدأ حالاً التدرب في بيته علي هذا النوع غير المألوف من الخطب، ووقف مشدود القامة، وخاطب أناساً غير مرئيين، وقال لهم: تخيلوا يا أيها السادة أن المطر الذي يهطل الآن هو آخر مطر، ولن يعقبه أي مطر .

فتخيلت زوجته المطر ينهمر ليل نهار من دون أي توقف حتي يضطر نوح نفسه إلي العودة إلي الحياة وبناء سفينة جديدة وتحذير الناس ثانية من طوفان آت.

واستمر النائب في مخاطبة أناس غير مرئيين، وقال لهم: وتخيلوا أن شروق الشمس اليوم هو آخر شروق لها، ولن نراها مرة أخري إلا في الأفلام الخيالية .

فتخيلت زوجته الشمس تشرق شروقاً يشبه الانفجار ويشعل الحرائق في كل مكان غير مميز بين مذنب وبريء.

وصاح النائب محملقاً بنظرات ماكرة إلي مستمعيه غير المرئيين: وتخيلوا يا أيها السادة أن كل النساء الجميلات تحولن رجالاً أشداء غلاظاً .

فتخيلت زوجته أن كل الرجال تحولوا نساء يتواثبن من سرير إلي سرير.

وقال النائب لأناسه غير المرئيين بصوت مفعم بالأسي: وتخيلوا يا أيها السادة أن الضرائب ألغيت والقوانين ألغيت والحكومات ألغيت والبرلمانات ألغيت .

فتخيلت زوجته البرلمانات وقد ازدادت بأساً وحلت محل المسارح الكوميدية والمخافر، وفرضت ضرائب باهظة علي التنفس.

وقال النائب لأناس غير مرئيين مبشراً: وتخيلوا يا أيها السادة أن اللصوص أجمعين تابوا، وبات رجال الشرطة يعانون ويل البطالة .

فتخيلت زوجته بلداً لصوصه هم رجال شرطته، وقتلته هم جنود جيشه.

وخاطب النائب أناساً غير مرئيين قائلاً لهم بصوت متهدج حزين: وتخيلوا يأ أيها السادة أني سأنتحر وأموت .

فتخيلت زوجته زوجها ينتحر ورؤساءه ينتحرون، فينطلق سكان الكرة الأرضية في الشوارع مزغردين.

يطالبوننا..

يطالبوننا بأن نتحلي بالتسامح حتي نتمكن من أن نحب من يقتلنا، وكل من يتجرأ علي أن لا يحب قاتله هو مرشح للحساب العسير والعقاب والتدمير كأن المقتول من الممكن ان يقتل مرتين..

ويطالبوننا بالابتعاد عن التزمت البغيض الذي يمنعنا من أن نكيل لهم المديح متجاهلين أيديهم وأفواههم الملطخة بدمائنا..

ويطالبوننا بأن نكون مسالمين بينما طائراتهم ودباباتهم تحصدنا وتحصد بيوتنا كأن الوردة لا يحق لها أن تدمي اليد التي تبترها من شجيرتها..

ويطالبوننا بنسيان بعض أجدادنا الرائعين الذين أهلكوهم بالتدريج، وأرغموهم علي الانتقال الي عالم القبور مهمومين مغمومين من دون أن يضحكوا إبان حياتهم إلا الضحك المزور الكاذب..

ويطالبوننا بأن نؤمن بأن ما في أرضنا من ثروات طبيعية ليست لنا ولا نستحقها بل هي لهم لأنهم الأرقي والأقوي..

ويطالبوننا بنسيان ثرواتنا المودعة في مصارفهم والاكتفاء بأننا حصلنا علي فوائدها طوال سنوات مع أنها ليست لنا..

ويطالبوننا بالتخلي عن آلهتنا القاسية وأنبيائنا الصارمين واستيراد آلهتهم الرحيمة وأنبيائهم المصنوعين في هوليوود..

ويطالبوننا بنبذ تاريخنا الذي يتهمونه بأنه مملوء بالأكاذيب والأحقاد واستبداله بتاريخ آخر ناصع من كتابة مؤرخيهم ورجال مخابراتهم..

ويطالبوننا باستنكار القتل باسم الدين بينما هم يمارسون القتل الوحشي يومياً باسم الحياة الانسانية، وكأن القتل الأول هو وحده المذموم والقتل الثاني جدير بالتشجيع والثناء لكونه يشيد مجتمعاً عالمياً يستند الي الكرامة والعدل..

ويطالبوننا بأن تتبدل مدارسنا حتي يصبح تلامذتها قادرين علي شكر النعال التي تدوس علي رقابهم..

ويطالبوننا بأن نتعلم عدم المبالاة بما يسلب منا من أرض بحجة أن أرضنا فسيحة، ومهما ضاقت، فهي تظل كافية لنومنا الليلي ونومنا الآخر الأبدي..

ويطالبوننا بالإيمان بالديمقراطية وتمجيد محاسنها، وكل الجرائم المنكرة والمجازر المروعة في العالم الحديث لم ترتكب إلا باسم الديمقراطية والدفاع عنها وحمايتها..

يطالبوننا بالكثير، فلا نبالي بهم، ولا نخشاهم، ولا نلبي أي مطلب من مطالبهم، ولكن الجاثمين علي صدورنا بأسماء شتي يبادرون الي اعطائهم أكثر مما يطالبون به ليضمنوا بقاءهم علي رؤوسنا وظهورنا وبطوننا.

السوط للجميع!

تعني إحدي الجرائد الصادرة في بلد عربي بظاهرة إقدام الشبان علي مغازلة الفتيات في الشوارع، وتفسح المجال لكتابها وقرائها لخوض غمار نقاش ساخن حول الأساليب الكفيلة بردع هؤلاء المتحرشين المسيئين إلي الأخلاق الحميدة، وقد اتفقت آراؤهم علي أن اعتقال أولئك الشبان ومعاقبتهم فوراً بالجلد لا يكلف سوي بضع ريالات وجلاد ماهر ، وهو الوسيلة المثلي لتأديبهم وإرشادهم إلي الطريق القويم، ولكن عضواً في

هيئة التدريس في إحدي الكليات التقنية طالب بأن تجلد الفتيات أيضاً بحجة أنهن اللواتي يغرين الشبان بالتحرش بهن عن طريق التفنن في عرض مفاتنهن، واقترح أن تتولي إمرأة جلد الفتيات بحضور أمهاتهن لكي يتم إصلاح ما يمكن إصلاحه قبل فوات الأوان .

ولو طبقت هذه الآراء فعلاً لانتصرت الفضيلة انتصاراً مدوياً سيسفر عن مجتمع خاضع لخوف أعمي، ويعج بأذلاء مهانين أحنت السياط ظهورهم ورؤوسهم، وينظرون إلي النظام الاجتماعي السائد في بلادهم علي أنه أب قبيح فظ جلف يهوي بسياطه علي كل ابن يتجرأ علي أن يتصرف كمخلوق حي من لحم ودم.

ولا ريب في أن هؤلاء الشبان يستحقون ما يحل بهم من جلد وتشهير، فالذكر لا يغازل إلا زوجته، ولا يحب إلا أولي أمره، ولا يقبل إلا أيدي شيوخه، وكل غزل آخر وحب آخر وقبلة أخري عداء للفضيلة والحشمة والأخلاق الحميدة ومقدمة للزني. أما الأنثي التي لم تصبح زوجة، فهي مجرد قطعة لحم، تنظف وتعقم وتعطر وتحجب وتصان ويحافظ عليها في انتظار مجيء القادر علي اقتنائها، فتسلم إليه لترحب بأن يفعل بها ما يشاء متي يشاء.

ومن المؤكد أن تلك الجريدة التي اهتمت بطرح تلك الظاهرة تستحق التنويه بجهودها لمساعدة الناس علي تصحيح ما في آرائهم من خطأ متيحة لكل من يعتقد أن حركة طالبان هي أفغانية وليست عربية أن يلطم خديه خجلاً وأسفاً، فالشجرة هي الأصل والغصن هو فرع، وقطع غصن صغير لا يعني أن الشجرة قد قضي عليها، ولم تعد قادرة علي إنبات أغصان جديدة.

برلمان الخشب المسندة

لا يزال المفكر العربي اليساري محمود أمين العالم قادراً علي أن يحلم حتي في هذا الزمان الراهن الأغبر، وآخر أحلامه هو اقتراحه الداعي إلي تأليف برلمان للمثقفين العرب يتولي وضع مشروع قومي عملي يقدم حلولاً للقضايا القومية المختلفة، وهو اقتراح سترحب به ألسنة المثقفين العرب، ولكن قلوبهم ستزخر بتساؤلات خفية تخجل من الإفصاح عنها علانية:

ــــ هل ستدفع لنا رواتب شهرية بالعملات المحلية أم بالعملات الأجنبية؟

ــــ هل ستخصص لنا سيارات؟ وما ماركاتها وألوانها وقوة محركاتها؟

ــــ هل ستصدر مراسيم رسمية بتعييننا أم أن تعييننا سيتم عن طريق الانتخاب الديمقراطي؟

ــــ أين ستعقد جلسات البرلمان؟ هل ستعقد الجلسات الشتوية في عواصم العالم الدافئة والجلسات الصيفية في كابري وكان؟

ــــ هل سيباح لنا التزود بالأسلحة حتي نتمكن من النقاش الحر وتقديم الحجج القادرة علي الإقناع؟

ــــ هل ستكون جلسات البرلمان سرية حتي لا يتاح للعدو معرفة بعض ما نفكر فيه أم أنها ستنقل نقلاً مباشراً كمباريات كرة القدم والحفلات الغنائية؟

ــــ هل ستخصص تعويضات إضافية للمتكلمين في أثناء الجلسات وتعويضات للمنصتين وتعويضات للصامتين المغمضي العيون المقفلي الأفواه؟

ـــــ هل سيحق لعضو البرلمان الثقافي الزواج بأكثر من زوجة؟ ومن هي الجهة التي ستتعهد بدفع المهر ونفقات شهر العسل؟

ـــــ هل سيؤذن لنا بحضور الجلسات من غير ربطات عنق؟

ـــــ هل سيسمح للسكرتيرات الجميلات بالجلوس لصقنا في أثناء الجلسات حتي ينجحن في تسجيل كل كلمة ننطق بها؟

ـــــ هل سنمنح قروضاً يحق لنا في ما بعد عدم تسديدها حتي لا يشعر المثقف بأية غربة في وطنه، وحتي يثق بأن الوطن يطعم كل أبنائه بلا تمييز؟

ـــــ هل ستقرض الفئران ما سيقترحه برلماننا أم أن العناكب ستتولي مهمة صنع الأكفان له؟

ومن المؤكد أن محمود أمين العالم لو لم يكن واحداً من مشاهير الحالمين المتفائلين لما اقترح ما اقترحه، ولاقترح اسكان المثقفين في قرية ذات أسوار شاهقة وأبواب غير قابلة للاحتراق حتي تتطور مجتمعاتهم من دون عونهم القدير علي تحويل العواصف إلي ألعاب نارية في ليالي السيرك.

التأديب الروائي

عندما صدرت رواية الكاتب العربي المعروف باللغة العربية حققت كثيرا من الانتصارات، فقد تشاهق النقاد إعجاباً بجرأتها الفكرية والفنية، وتسابقوا إلي الثناء عليها، وكانت الرواية ثقيلة الوزن، فلجأت الزوجات إلي الاستغاثة بها وطلب العون منها بغية تأديب العصاة من الأزواج، فأدت أكثر مما هو مطلوب منها، وتحوّل الأزواج المتفاخرون برجولتهم خرافاً تثغو مستجدية أن تمنح حفنات من العشب.

وقد حظيت الرواية ببعض ما تستحقه من تكريم، فقد نالت جائزة أفضل بحث عم موضوع التكامل الوحدوي العربي، ونالت جائزة أحسن ديوان شعري حديث، ونالت جائزة أعمق دراسة حول تربية الأطفال المعوقين، وترجمت الرواية نفسها إلي كل لغات العالم.

نشرت بالانكليزية، فانخفضت مبيعات المناديل الورقية وما شابهها، وبكت مصانعها مشتكية من المنافسة غير المتكافئة..

ونشرت بالفرنسية، فتضاعف النشل والسطو علي المارة العزل، وازداد الإقبال علي المتاجرة العلنية بالمخدرات..

ونشرت بالعبرية، فكانت الثأر العربي العاجل الصارم الذي لا يعرف الشفقة..

ونشرت بالاسبانية، فندم الاسبان علي أن العرب طردوا من الأندلس وحدها..

ونشرت بالأوردية، فعجز الهنود عن كظم غيظهم، واندفعوا إلي الذين يخالفونهم في العقيدة وأحرقوهم أحياء..

ونشرت باليابانية، فتمطي الجيش الأحمر الياباني متأهباً لمزيد من عملياته السرية الانتحارية..

ونشرت بالألمانية، فهرع الألمان إلي قبر غوته، ورمقوه شذراً..

ونشرت بلغة القطط، فتخلت القطط عن وجومها، وتحولت قططاً تعوي محتقرة المواء.

أما آخر طبعة لها، فقد صدرت باللغة الأفغانية.
قرأها بعضهم، وملّ، وانتحر، وقرأها بعضهم الآخر، وملّ إلي حد أنه عجز عن الانتحار.
وحاولت فئة ثالثة من القراء الأفغان أن تقرأها، وعجزت عن إكمالها، فنجت من هلاك محتم لترحب أصواتها المتهدجة بقصف أمريكي أرق وألطف وأعذب.
قرأها الملا عمر زعيم حركة طالبان، فأحس أن جسده بغير وزن، وتلاشي كلياً، وقرأها أسامة بن لادن، فمزق ثيابه، وحثا التراب علي رأسه، وخرج من مخابئه، وتوسل إلي الأمريكيين مناشداً اعتقاله وقتله علي عجل.
ولا بد من التنويه بأن الرواية حظيت بالتقدير والاحترام أينما نشرت، فهي كثيرة الصفحات، والشتاء بارد، والنار مستحبة.

ممنوع التمطي!

تألفت في الولايات المتحدة الأمريكية حكومة ظل تعمل خارج واشنطن، وتتولي إدارة البلاد إذا ما تعرضت القيادة الحالية لأي هجوم إرهابي، فبادرت جمهورية نجوي فؤاد الديمقراطية إلي اتخاذ إجراء مماثل خاصة وأنها تشن حرباً ضارية علي الإرهاب، وألفت حكومة سرية تضم نخبة من خيرة الراقصين المشهود لهم بالكفاءة والخبرة، وليس بينهم واحد غير حائز علي الشهادة الإبتدائية.
وكان ثمة إجماع في جمهورية نجوي فؤاد علي أن حربها علي الإرهاب صعبة وطويلة، وتفرض حشد كل الطاقات والجهود، فنشط رجال الحكومة لتحقيق هذه الغاية، وطلب وزير الدفاع من جنوده تناسي خلافاتهم الفكرية حول نجوم الطرب وكرة القدم لأن الوطن في خطر، ويحتاج إلي سواعد أبنائه، فركل الجنود تواً خلافاتهم وتحولوا إخوة، وشمروا عن سواعدهم المفتولة، وسمحوا بتصويرها.
وحثّ وزير التربية والتعليم تلامذة المدارس علي الاستمرار في رقابتهم علي آبائهم وأمهاتهم وإخوتهم وأصدقائهم وأقاربهم وجيرانهم بغية استئصال جذور آفة الإرهاب.
ودعا وزير الداخلية كل مواطن إلي أن يهجر النوم ويصبح خفيراً ساهراً علي حماية وطنه، فلبي المواطنون دعوته بحبور، وعاشوا بغير نوم.
وناشد وزير الثقافة الأدباء مطاردة الإرهابيين، فسارع الأدباء إلي التطويح بأقلامهم وأوراقهم إلي صناديق الزبالة، وانتشروا في أرجاء البلاد انتشار النار في الهشيم منقبين في أعماق الأرض عن الإرهاب.
وقد استطاعت الأجهزة الأمنية تحقيق نصر عالمي عندما حلت لغز اختفاء أسامة بن لادن بعد أن اعتقلت رجلاً اعترف بأنه ضعف أمام المال وباع أسامة بن لادن طاقية الإخفاء التي تمكنه من الإفلات والهرب.
ولما كان النظام السائد في جمهورية نجوي فؤاد يؤمن بتعدد الآراء ويكفل لها الحرية، فقد سمح للصحافة بنشر مقالات تطالب بمعاملة الإرهابيين المعتقلين معاملة إنسانية تتيح لهم اختيار الميتة التي يرغبون فيها، فإما أن يموتوا مثقوبي الرؤوس بالرصاص، وإما أن يموتوا مذبوحي الأعناق.
وتنبه الخبراء بمكافحة الإرهاب إلي أن البلاد كثيرة الشجر والجبال، ويسهل علي الإرهابيين الاختباء فيها،

فصدرت أوامر بقطع الأشجار ومحو الجبال، فإذا البلاد تتحول من خضراء إلي جرداء، ولم يتذمر الناس، ففي سبيل دحر الإرهاب يُضحي بالرخيص والغالي.

شاكرة مشكورة

تحظي حالياً أغاني مغنية البوب الكولومبية المولد شاكرة بالرواج والإعجاب في الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان أمريكا اللاتينية، وهي امرأة جميلة، طويلة القامة، شقراء، طويلة الشعر، لها جسد ممتلئ ورشيق، يملك من الوهاد والهضاب والأودية ما يغري الرجال الوقورين بالتحول إلي خيول تصهل وقرود تتواثب علي أغصان الشجر، تظهر في أغانيها المصورة كأنها لا تكن وداً عميقاً للثياب، وما ان تبدأ الغناء حتي يبادر جسدها إلي الحركة المباركة مؤازراً صوتها بتفان وحماسة، ويضطر مشاهدها إلي نسيان أنه يملك أذنين، ويتذكر فقط أنه يملك عينين محملقتين، ولو كان صوتها مجرد حشرجة وزقزقة وبقبقة لما تنبه المشاهد إليه.

وما تفعله شاكرة بصوتها وجسدها يفعله كثيرون لبلوغ النجاح الذي يصبون إليه، فالسياسي الذي لا مكانة له معنوية أو مادية بسبب ضعف صلته بشعبه والطامع في الوثب إلي أرقي المناصب، لا يجد بداً من الطواف علي الدول الأجنبية مستعطفاً شارحاً لها الفوائد التي ستحصدها إذا ما وافقت علي استخدامه..

والأديب الصغير الموهبة العارف بأن موهبته لا تؤهله للجلوس في قاعة الأدب، وتؤهله للوقوف في صفوفها الخلفية، يلجأ إلي تشكيل العصابات الثقافية المكلفة بتضخيم موهبته والدعاية لها في أرجاء الأرض..

والجرائد المختصة بنشر القمامة السياسية والفكرية تزيد من عدد صفحاتها وألوانها ومديحها لنفسها لعل العطار ينجح في إصلاح ما أفسده الدهر..

والحاكم المتهم بالديكتاتورية والعداء للحرية، يسارع إلي استيراد الأشكال الخارجية للديمقراطية، ويشيد بناء خارجه رخام وداخله سخام..

وسارق أموال الناس المطوق بالأدلة المبرهنة علي جرائمه لا يكف عن التكلم ببلاغة وفصاحة عن أهمية مكافحة الفساد والقضاء علي الفاسدين المفسدين.

وكل ما يفعله هؤلاء يشابه ما تفعله شاكرة ، ولكن شاكرة تختلف عنهم بفتنة تشفع لها بينما هم دببة وضباع وضفادع.

ومن حسن حظ العرب أن شاكرة لبنانية الأصل، فبات من حقهم أن يرفعوا رؤوسهم المنكسة متباهين بها، ويواجهوا خصومهم الزاعمين أن العرب بغير مبدعين، ويلقموهم أحجاراً من سجيل، ولكن رؤوسهم ستنكس ثانية حين يقال لهم إن مواهب شاكرة لم تسطع إلا لأنها لا تعيش في بلد عربي.

ومن الثاني؟

بات من الجلي لكل ذي عينين أن الشاعرين أدونيس ومحمود درويش يخوضان غمار منافسة ساخنة علي الفوز بلقب الشاعر العربي الأول، وكلما ازدادت تصريحات الشاعرين المؤكدة أن كل منهما يحترم الآخر ويقدره وأن العلاقة بينهما سمن وعسل وجنات تجري من تحتها الأنهار ازداد اقتناع ضحايا الشعر الحديث بأن الأمور بين الشاعرين توشك أن تهدد بنشوب حرب عالمية جديدة تستخدم فيها كل الأسلحة سواء أكانت مسموحة أم محظورة، وقد اقترح بعض المسالمين أن تجري بين الشاعرين مباراة في المصارعة الحرة، ومن يفز علي خصمه هو الشاعر الأول بغير منازع.

ومن المؤكد أن الشاعرين لن يرفضا مثل هذا الاقتراح حقناً لدماء الأبرياء وصوناً للأرواح، وسيرحبان به علي مضض، ويستعدان لليوم الموعود، وسيبادر محمود درويش إلي الانتساب إلي ناد رياضي، ويشرع في التدرب يومياً علي المصارعة، ويباشر الركض في السهول والشوارع وصعود السلالم والجبال حتي يظفر بلياقة بدنية تؤهله للانتصار في المباراة المنتظرة. أما أدونيس، فلن يغير من حياته، ولن يقدم علي أي تدريب، بل سيستمر في التخطيط الحاذق لغزو السويد محاطاً بجنرالاته من مسؤولي الصفحات الثقافية في الجرائد والمجلات العربية وصغار المستشرقين.

وستترامي إلي مسامع مسؤولي المحطات التلفزيونية الفضائية العربية والأجنبية أنباء تلك المباراة المتوقعة، فيسارعون إلي التنافس علي نيل الحق في نقل وقائع المباراة بين الشاعرين نقلاً حياً إلي مشاهديهم، فيرحب أدونيس بعروضهم، ويدرس أسعارهم، ولكن محمود درويش سيعارض معارضة صارمة علي الرغم من ثقته بأنه فائز لا محالة، فهو يخشي من أن يلجأ خصمه إلي الغش، فيتلو عليه المنتقي من أشعاره الفلسفية في أثناء المباراة، ويحدث ما لا مفر منه وما لا تحمد عقباه، وتخور قواه، ويترنح متوجعاً كأن أسفل بطنه أصيب بركلة نجلاء، ويسقط أرضاً متلهفاً علي سماع صوت الحكم يعلن انتهاء المباراة ونتائجها التي ستصفع الشعر وتحرضه علي التفكير في الانتحار هرباً من الاغتيال.

تزيين القرد

سئم الناس في البلاد العربية التضليل والتلفيق والتزييف، ونفد صبرهم، ولم يعد في مقدورهم تحمل أي مزيد منه، وألغوا عيونهم وآذانهم مؤمنين أن القرد لن يصبح غزالاً والغزال لن يصبح قرداً، ولكن إسرائيل لها رأي آخر مختلف إذ لا تزال تعتقد أن القتيل يمكن أن يحب قاتله إذا كان القاتل حصيفاً ذكياً بارعاً في النقاش، فعما قريب سيبدأ البث التجريبي لأول محطة تلفزيونية إسرائيلية ناطقة باللغة العربية، وستكون غايتها الأساسية تجميل صورة إسرائيل لدي الشعوب العربية، وهو تجميل لن يستطيع تجاهل ما تفعله إسرائيل حالياً في الأرض الفلسطينية المحتلة، وسيحاول تبريره، فالبيوت التي هدمت لم تكن صحية، والعيش في العراء أفضل من العيش في بيت هو مزيج من قبر وسجن، والملحد فقط هو الذي يرفض

السماء سقفاً لـه..

والأشجار التي قطعت ليست بالبريئة بل ثبت أنها علي علاقة بالإرهاب الدولي، وتتلقي أوامرها من أسامة بن لادن..

والأرض الزراعية التي أتلفت حل بها ما تستحقه من عقاب، فهي كسلي لا تعطي إلا بعد حرث وبذار..

والأطفال الذين قتلوا كانوا مغمورين مجهولين، وقتلهم أتاح لهم الظهور علي شاشات التلفزيونات في العالم، وحصلوا علي الشهرة مجاناً..

والرجال الذين اغتيلوا هم خير دعم لكيان الشعب الفلسطيني، فلا وجود لشعب بغير شهداء.

وتجويع الناس هدفه محاربة السمنة وترهل الأجسام وتعميم الرشاقة..

والأراضي التي تصادر ويستولي عليها ستشيد عليها حدائق للأطفال ومستشفيات للعجزة، وكل معترض يبرهن علي أنه بلا قلب..

أما الحصار، فهو وسيلة لإرغام الرجال علي البقاء في بيوتهم وتمتين الأواصر العائلية.

ومن المؤكد أن محاولات إسرائيل لتجميل صورتها لدي العرب ستخفق حتي لو كانت بلداً لا يضم إلا الملائكة لأن وجودها نفسه هو ذريعة معظم الحكام العرب للاستمرار في القبض علي شعوبهم وكراسيهم.

حدث ولا حرج - مشاكل عائلية

عاد الكاتب إلي غرفته في آخر الليل محني الظهر متأبطاً الجريدة اليومية التي يكتب فيها، وقد طوح بها إلي الأرض بحركة ازدراء، وتأهب لخلع ملابسه، فاغتاظت الجريدة منه، وبدا لها صلفاً غير مؤدب، وقالت له متسائلة : لماذا تصرّ علي الكتابة كل يوم ما دمت محشواً بالتأفف؟ .

فقال الكاتب فوراً : من الحمق أن يسأل الإنسان عن سبب استمراره في الشهيق والزفير .

قالت الجريدة: وهل ما تكتب عنه منتقداً يتغير؟ .

قال الكاتب: من المدهش أن ما أكتب عنه يسارع إلي التغير ليصبح أسوأ وذا بطن وظهر ومخالب وأنياب .

قالت الجريدة: ما دام لا شيء يتبدل، فما جدوي كتاباتك؟ .

قال الكاتب: كأنك تتناسين أن الحي يتكلم والميت لا يتكلم .

قالت الجريدة: لماذا تركز علي ما هو سلبي متجاهلاً ما هو إيجابي؟ .

قال الكاتب: ما هو إيجابي انتقل إلي دار الفناء، ولم يبق علي الأرض العربية إلا ما هو سلبي يختال ويزمجر .

قالت الجريدة : كيف تستطيع تجاهل دم الشهداء؟ .

قال الكاتب : سأكون مقصراً حين أتجاهل المتاجرين بدم الشهداء .

قالت الجـــريدة : ما رأيك في ما تكتبه؟ .

قال الكاتب : إنه تبديد للورق والحبر والجهد، ولا بد منه ما دام يهجو عدواً .

قالت الجريدة : هل ستتجرأ علي هجاء القتلة؟ .

قال الكاتب : إذا جبنت عن هجائهم، فلن أغمرهم بالتمجيد .

قالت الجريدة : ماذا ستكتب غداً؟ .

قال الكاتب : سأكتب عن جريدة ثرثارة تشبه مخفر شرطة .

قالت الجريدة : أري أصابع يديك تستعد لتمزيقي، وسأسكت طلباً للسلامة .

وبادرت الجريدة إلي السكوت، ولكن سكوتها لم يكفــل لها النجاة من التمزيق.

الفهرس

الرُغام
قش يحترق!
شعب يُباد!
أين كنت؟
وطن آخر موضة
لم يســكــتــوا دهراً
ما عندكم ينفد
المغني
أدركــته ركلة الأدب
من حفرة إلي
قبر خاو
سنهرب ببسالة!
ربيع الفضوليين
صراخ بغير صوت
الحامدون بغير توقف
طيران البغل!
صراخ بغير صوت
تخيلوا يا أيها السادة
يطالبوننا
السوط للجميع!
برلمان الخشب المسندة
التأديب الروائي
ممنوع التمطي!
شاكرة مشكورة
ومن الثاني؟
تزيين القرد
حدث ولا حرج - مشاكل عائلية